مروى جوهر
رواية
القربان
إنها بجوارك كل ليلة،
لكنك لا تراها
دَار دَوِّن

مروى جوهر: القربـــان، رواية

الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠٢٥

رقم الإيداع: ٢٠٢٤/٣٠٨٩٣ - الترقيم الدولي: 978-977-806-456-8

جَميـعُ حُـقــوقِ الطَبْـع والنَّشرِ محـْـــفُوظَةٌ للناشرْ

لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة

بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

إن الآراء الـــواردة فـــي هـــذا الكتـــاب

لا تُعبـــر عـــن رؤيـــة الناشـــر بالضـــرورة

وإنمـــا تعبـــر عـــن رؤيـــة الكـــاتب.

© دار دَوِّنْ

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

عضو اتحاد الناشرين العرب.

القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053

info@dardawen.com

www.Dardawen.com

أُذكّر نفسي دائمًا بالنظر إلى الأمورِ

من كافة الاتجاهات ووِجهات النّظر،

فربّما أجِد شيئًا من الحقيقة بينها،

أُذكّر نفسي أن كلّ ما نراه ليس حقيقيًا تمامًا..

وإنّما هو فقط معروضٌ من زوايا مُختلفة وَوِجهاتِ نظرٍ عابرة!

مروى جوهر

(١)

في شتاءٍ حالِم، وبينما أستمتع بصوت زخّات المطر وقطراته المتساقطة خلف الشّباك الزجاجي بداخل غرفةِ مكتبي الصغيرة، كانت أوراق الشجرة العَتيقة المُلاصقة للمبنى تتحوّل من الأخضر الباهت إلى أخضر زاهٍ يدعو إلى التفاؤل، وعندما اخترقَت رائحةُ المطر المُنعشة غرفةَ مكتبي كُنت أتفحّص ملَفًا لقضيةٍ أزعجت الرأي العام على وسائل التواصُل الاجتماعيّ..

«أمٌّ في أواخِر العشرينيات ذبَحت ابنتها الرضيعة الوحيدة.. ثم فصَلت أعضاءها عن بعضها! لكنها حفِظت القلبَ والمخّ والعينين والكُلي بداخِل عبوّات زجاجية!».

قضية وصفها بعض الزملاء في مهنة المُحاماة بأنها مُعقّدة، إلّا أنني أراها غاية في السهولة.. ببساطةٍ إنّها امرأة مَخبولة، تقولُ: إنّ الجنّ أمَرها بذلك، وإنها لا تستطيعُ رفضَ أوامِره! لكنّني تذكّرت رأي أبي.. «هاشم أبو الفتوح» المحامي الشهير «سابقًا» بقوله:

- «مورين» يا حبيبتي، إنّ هذه الجرائم البشعة متشعبة، ولها خلفيات مُختلفة، يجبُ إدراك ذلك، فلا تتسرّعي في الحُكمِ، فهُناك جرائم مُشابهة حدَثت في السنوات الأخيرة، فهل تتذكرين حادثة الشرقية الشهيرة في عام ٢٠٢٣ الذي اعتزلتُ فيه مهنة المحاماة؟ لقد ذبَحت أمٌّ طفلَها البالغ من العُمر خمس سنواتٍ، فصَلت رأسَه عن جسدِه ثم طهَته وأكَلته! وكل ما تبقّى من المِسكين مجرد أشلاء! لقد أقرّت أنّها أرادت أن يكونَ بداخِلها إلى الأبد لتحمِيَه من الآخرين! فمن هم الآخرون؟ إنها قِصّة مُرعبة لكن للأسف هناك جرائم مُشابهة

على مدار سنواتٍ، ربما يُعزِّز ذلك وِجهة نظرك عن الخبَل والمَرَضِ النفسي، لكنه ليس كذلك إذا نظرنا من زاوية مختلفةٍ، والآنَ نعودُ إلى قضيتكِ.. بالفِعل قرّرت النيابةُ التحفُّظ على المُتهمة تمهيدًا لعرضها على الطبيب المُختصّ لبيانِ مدى سلامة قواها العقلية، لكن شيئًا بداخِلي يرفضُ الإطار الخارجي للجريمة، إن الدافعَ لارتكابِ هذه المرأة مثل هذه الجريمة لا بد وأن يكونَ أقوى من أمومتِها!.

أتذكّر أنّه تَنهّد وأمسَك بسبحتِه قائلًا:

- إن إبليسَ يجعل البشر يبررون فظائعَ أفعالهم، لكن ما يُهم في النهاية هو العودة إلى الله، والنّدم على الخطيئة، والعَزْم على الطاعة؛ وإلّا فهي الخسارة الكُبرى.

نحيث الأوراقَ جانبًا على طرف المكتب في مَللٍ لأمسكَ بكوبِ القهوة الساخن، لا زلت أشتَمُّ عِطرَ أمّي النفاذ في ملابسي عندَما عانقتُها اليوم قبل مُغادرتي، أرتشِف القهوةَ على مهَل وأفكّر في رغبتي العارمة في ترك وظيفَتي في إحدَى مكاتب المُحاماة العريقة، لأُواصلَ العملَ على قناتي الخاصة على «اليوتيوب» بعد أن أصبحتُ مشهورةً في تقديم الاستشارات القانونية وَسط مُعارضة عائلتي الشديدة، واتهام بعض الأصدقاء بأنّني مُترفة لا أُقدّر النعمةَ؛ لأن وظيفتي يتمناها خِيرة الشباب، وأنا أفكّر، لماذا أنتظر موافقة الأهل أو إرضاء أصدقائي، وأنا في الثالثة والثلاثين من عمري؟!!

لكنني أتفهم مُعارضة أبي تركي العملَ؛ لأنه يرَى في المُحاماة مُستقبلًا باهرًا، ويحب الدّفاع عن الحقّ، وقد خاض الكثيرَ من المعارك القضائية لسنوات طويلة في رحلة عملِه حتى اعتزل المهنةَ،

ورفَض الكثيرَ من القضايا المُلتوية، برغم أن قضيةً واحدةً منها فقط كانت تكفِي لجعلنا أغنياء جدًا مدَى العُمر، لكنه رفَض بشرفٍ وحسمٍ، وزرَع فينا مبادئه منذ الصِّغر، وكان يردِّد على مسامعنا أننا في مستوًى ماديٍّ عادِّي كثيرًا كي يصل بنا إليه، وعندما اكتفى بما حقَّق من نجاحات في العمل والبيت؛ تفرَّغ بعدها للعبادةِ بشكلٍ مُكثَّف، وكأنه يريد تعويض كل الأوقات التي أهدرها في حياته «بعيدًا عن الله» كما يُردِّد، فقسَّم أوقاتَه بين العبادة، وبيننا، وبين لقاء صديقه المقرَّب المحامي «عبد الحكيم».

أيضًا أتفهَّم مُعارضة أمي سيدة المجتمع «عالية الفِقي» لتَرِكِي عملي؛ لأنها ترى فيه فرصة كبيرةً للزواج من رجلٍ آخر غير «إياد علّام» خطيبي، أولًا لأننا تعارفنا عبرَ تطبيق «إنستاجرام» حيث كان يستشِيرني في قضية إرثٍ لصديقه، ثم تطوَّرت علاقتنا تدريجيًا، ووافقنا الحظّ إذ إن «إياد» يقُطنُ ويعمل بالقُرب من مكتبِي في منطقة «مدينة نصر»؛ فكانت لقاءاتنا شبه يومية، فأصبحنا أصدقاء، وتمّت خطبتنا في فترة وجِيزةٍ، وهذا ما لم تتفهَّمه أمي إلى الآن؛ لأنها شخصية نمطية. وثانيًا لأنه ترَك عمله كصيدلاني ليصبحَ مذيعَ راديو بإحدى أشهر المحطات الإذاعية، فهي تظن أنه يُشجعني على ترك عملِي مثله. ثالثًا لأنها لا يعجبها مظهره وطريقته في الحوار عمومًا، فهي تراه مُخنثًا، وأهوَجَ، وغير مسئول، ربما لأن ملابسه تواكب أحدث صيحات الموضة ويحبُّ الفُكاهة؟

لكني حاولت مرارًا إقناعها بأنه يحبُّ الموضَة والفُكاهة، خاصة أن ميعاد زفافنا قد اقترب، لكنها تنعته بـ«الأراجوز» كلّما ألقَى نُكتة أو ارتدى ملابس مختلفة الذوق، تقول: إن اختياره لمظهره لا يتماشَى

مع ملامحه الشرقية؛ فهو أسمَر، وطويل، وضخم، وكان سيليق به اختيار مظهر تقليدي.

أنا أتفهم كونه مختلفًا، ولكن وللحق أحيانًا لا أشعُر بأنوثتِي بجانبه حينما يتجاوز الحدود اللائقة، خاصة عندما يرتدي تلك الأزياء الغريبة التي يجلِبها من محالّ الأزياء العالمية.

كذلك عندما ينشُر فيديوهات سخِيفة على مَنصّات التواصل الاجتماعي تجعلني أشعُر بالخجل؛ ذاتَ مرةٍ قال «إيهاب» زوج «سما» شقيقتِي»: إن «إياد» سيتغيّر بعد مسئوليات الزواج، والمهم هو حُبه ودَعمه لِي، لكن «سما» اكتَفت بنظرات ملؤها السخرية، فأكّدت أمي أن الزواج لا يُغير أحدًا، بل يُظهر وَجهه الحقيقيّ، وتدعو الله أن أرى كيف يكون الرجل بحقٍّ، وعندها لن أعتبر «إياد» من الرجال.

وبرغم أنه لم يصدُر منه أي تصرُّف يُثبت كلام أمي منذ خطبتنا التي مر عليها سنة، فإنها لا تغير رأيها أبدًا عنه، حتى إنه يحاول التقرُّب لأمي بإهدائها عطورًا مختلفة لعلمِه بهَوَسها بالعطور، حيث تحرص أن تظل رائحتها عطرة، حتى إنها تضع عطرها قبل كل صلاة، فكان يبتاع العطر ويجعل «راحيل» تهديه لأمّي لكي تقبلَه، لكن.. هذا أيضًا لم يشفع له عندها.

إن أمّي لا تثق في اختياراتنا؛ فقد تزوّجت «سما» بعد قصةِ حبٍّ كبيرة، وضغطت على أمي كي توافق على زيجتها؛ ذلك لأنها رأت «إيهاب» غيرَ مسئول، وبرغم أن «سما» لا تخبرنا عن حياتها الكثير خاصة عند الخِلاف، فإنني كنتُ أعلم مشكلاتهم وأعلم أنها لا تريد

لومًا من أمي، وهذا ما يُخيفني أحيانًا.. أن تكون أمي على حقٍّ.

لكني لا أتفهم اعتراض «سما» لترك عملي، فهي تكبرني بعامين فقط، ويُفترض أن تفهم ما أتحدّث عنه، أشعر أحيانًا أن الفجوةَ في التفكير تزداد بيننا، فقد تغيرت كثيرًا بعد زواجِها وأصبحت تقليدية إلى أبعد حدٍّ.

أما «راحيل» ابنتها الوحيدة ذات السنوات التسع، فهي الرابط القوى بيني وبين «سما»، وهِي شبه مُقيمة في بيتنا منذ ولادتها؛ ولذلك فأنا لستُ مجرد خالة لـ«راحيل» فحسب، بل إن علاقتنا عميقة.. ويقولُ الجميع إنها تُشبِهني، وكأنها نُسخة ثانية منّي، إنني أحِبُ نظرات الذكاء في عينيها الواسعتين، وأهدابها الطويلة، بشرتها الخمرية، وهاتين الضفيرتين السميكتين الطويلتين شديدتي السواد، والتي تتميز بهما، هي حبيبتي الحنونة التي تشعر بي على صِغر سِنّها، إنها طفلةٌ مميّزة تأخُذ الروح، وهي التي تُجبرني على حضور الكثير من المناسبات العائلية المُملّة، كما أن «إياد» يُحبها ويدللها كثيرًا، حتى إنه يصطحبها كثيرًا معه لتحضُر بَرنامجه الإذاعي مع زميلته «همسة»، وهذا شيء مُبشّر بالنسبة لِي؛ لأنه لا يُحب الأطفال في العموم، ولا يريد الإنجاب، وهذا سببٌ آخرَ يُثير قلقَ أمي بالدرجة الأولى؛ لذا أرى في حُبه لـ«راحيل» أملًا في تغيير رأيه، لكني أعتقد أنني حينما أنجِب لن أحبّ ابنتي بقَدر حُبّي لـ«راحيل».

تخافَتت زخّات المطر بالخارج، وازدادَ اخْضِرار الشجر خلفَ الزجاج، وبينما أحتسِي قهوتي على مَهَل؛ سمِعت صوته عاليًا يُسلّم علي الزّملاء بالخارج، إنه الرائد «باسل غنيم» ضابط المباحث

الشهير، وصديق أغلب زملائي، وصاحب مكتب المحاماة، لقد تعاون أكثر من مرةٍ مع بعض الزملاء في حلّ قضايا وصفوها بالغريبة على المجتمع المصري، فاكتسَب شُهرةً خاصّة بأنّه يتمتّع بذكاء وحدس مُتفرّد، لكنه انتقل مؤخرًا لدائرةٍ أخرى، وأثناء سماعي لضحِكاتِهم بالخارج رأيته أمامي عند مدخل المكتب، يقرَع البابَ مرتين.. ويبتسم مُنتظرًا الإذنَ بالدخول، لا أُنكر أن له طلةً وهيبة تجذبان الانتباه؛ فهو طويلٌ، لهُ بِنْية مُحارب، شعره قصير أشيَب يتخلّله بعض الخصلات السوداء القليلة، عُمره لم يتجاوز الأربعين عامًا، بشرته خَمرية، حليق اللحيةِ والشارب، له ملامح رومانية قَدِيمة، عيناه تلمعان تحت حاجبين كثيفين شديدى السواد، ملابسه كلاسيكية ليس بها ما يُلفت الانتباه، ومع ذلك فهو يملِك كاريزما تجعلُ كل من يراه يُنصِت له حتى قبل أن يتحدّث، يغلُب على شخصيته الحماس والغموض، إذ إننا لا نعرفُ عن حياته الخاصة شيئًا غيرَ أنه متزوجٌ، والبعضُ يُثرثر عن خبرِ انفصالِه دونَ تأكيدٍ، فهو لا يسمح بالتطفلِ، شخصيةٌ عمليةٌ، سريع الحركة كالأشباح، أتذكّر نظرات أمّي له عندما جلس معنا في إفطار المكتب لعائلاتنا الذي أقامه المُستشار صاحب المكتب في رمضان الفائت، وحسرتها لمّا رأت دبلة زواجِه.

نظر إليّ بعينين ثاقبتينِ من وراء غوِيناته الطّبية السوداء مُنتظرًا دَعوَته للدخول، أردَفتُ بسرعةٍ:

- أهلا «باسل».. تفضّل.

دخل وسلّم بحرارةٍ ثم قال:

- أتمنى أن تكون أمورك بخيرٍ؟

لاحظتُ أن عينيه تتفحصان ملَفّ القضية الكبير أمامي بفضولٍ فعلّقت:

- بخير الحمد لله.. تعلَم أن القضايا لا تنتهِي.

ابتسم وقال:

- ستنتهي في الجنة.. ما زلنا على الأرض.

نظرت إلى ملَف القضية وأردفت:

- لكن هذه قضية محسومة.

قبل أن أُعلّق كان عند باب المكتب يُشير بالانصراف قائلًا:

- سعيد كونك بخيرٍ، وحظٌ سعيد مع هذه القضية المحسومة.

انصرف «باسل» بعد أن علِمت من نَبرته أنه ربّما يستهزئُ بحديثي عن القضية! رنّ جرس هاتفي؛ لأجد اسم «راحيل»، لا بد أنها تُذكّرني بشراءِ الحلوَى، فقد حصَلت على عُطلة نصف السنة المدرسية وستبيت معِي الليلةَ.

- ألو.. راحيل.. أعلم لقد تأخّرت لكني..

قاطَعتني..

- متى ستأتين؟

- في غضونِ ساعتين ربما.. عندما تنتهي جدّتك من إعداد «طاجِن السمك» الذي طلبته اليوم.

تلعثَمت «راحيل» وهي تقولُ في خوف:

- لكنها ليست في المطبخ.

- أين ذهَبت جدّتك؟

بصوتٍ خافتٍ بكّت «راحيل» فاعتدلت في جِلستي وسألتُها بقلق:

- ماذا بكِ؟ هل أنتِ بخير؟

أصبح صوت بكائها واضحًا وتلَعثَمت وهي تقول:

- أنا بخير وكانت جدّتي بخير تمامًا إلى أن..

قاطعتُها وقد بدأت قَطَرات العرقِ على جبيني تَسِيل:

- كانت؟!!

- نعم..

كانت «راحيل» تسردُ الحدَث وأنا لا أفهَمه، وألوم نفسي على ذهابي للعملِ هذا الصباح، إن أمّي تُعاني من نزلةٍ معوية مُستمرةٍ، وبالرغم أن صحتَها في حالة من الضعف الدائم منذ فترةٍ، فإنها رفَضت رفضًا تامًا الذّهاب إلى الطبيب، واعتمدت على الطبّ البديل، وعندما عرضتُ عليها البقاء بجانبِها اليوم رفَضت وأصرّت أن أذهبَ للعمل، انتفضت من مكانِي وأنا أُلَملِم أشيائي بحقيبتي وأصرُخ:

- وأين جدّك؟ وأين سمَا؟

- جدّي ليس في البيت، وأمّي وأبِي هواتفهما غير مُتاحة.. حتى «إياد»، لذلك هاتفتكِ.

حينها بثُّ عند باب الشركة وَسط نظرات وتساؤلات الزُّملاء ومعهم «باسل»، لقد فهِموا أنها حالة طارئة ولا بد أن أُغادر، سألنِي «باسل»:

- «مورين».. هل كل شيء على ما يُرام؟

لم أُجِبه.. وأنا أهرول خارج المكتب، وأتمنى أن تُسعفني المسافةُ من مِنطقة «مدينة نصر» حيث المكتب إلى «شارع البرجاس» في منطقة «جاردن سيتي» حيث البيت، وأظُن أنني رأيت بعض الزملاء مع «باسل» يقفون على باب المكتب ويتحدّثون إليّ، صرَختُ في «راحيل» وأنا أضغطُ على زرّ المِصعد:

- أنا في الطريق.. فقط إبقى بجانبِها.

في السيارة هاتفتُ «إياد» فكان هاتفه غير مُتاح، لا بد أنه في الإستوديو، هاتفت «همسة» زميلته وصديقته لتُبلغه ولا أتذكّر ماذا قُلت، وهل حاولت الاتصال بأبي وشقيقتي أم لا، أعلم أن «إياد» سيفعل اللازم عندما يعلمُ، تذكّرت نظرات أمّي الزائغة صباح اليوم، وهِي تستغفرُ وتقولُ إنها تُعاني من الكوابيس المُزعجة مؤخّرًا، لم أشعُر بدموعي التي تسيل دون توقُّف، عندما وصلتُ إلى شارعنا تركتُ السيارة بشكلٍ عشوائيٍّ وهرعتُ نحوَ العِمارة، وقَف حارسُ العمارة الذي لا أراه إلا نادرًا ليُتابعني في فضولٍ.

فتَحت الباب فرأيت أمّي مُلقَاة على الأرض وبجانِبها «راحيل» ترتعشُ وتبكي، كانت تحتضِنُ دُميتها «الدّب» بقوةٍ، كانت هَدِية أمّي لهَا ولم تَعُد تهتَمّ بها منذ فترةٍ، لكنني لاحظتُ أنها تبحثُ عنها في الأوقات الصّعبة، رمَقتني «راحِيل» بنَظرة عتابٍ، وكأنها تلومنِي على غِيابِي، هرعتُ إلى أمّي أُحاول إفاقتها، لكنها لم تستَجِب، صِحتُ في

«راحيل»:

- ماذا حدَث لها؟

أجابتني «راحيل» في خوفٍ باكيةً:

- سمِعتها تتحدَث إلى أحدٍ ثم صرَخت فجأةً!

- تتحدّث عبرَ الهاتفِ؟

- لا.

نظَرت حولِي وصِحت:

- تتحدّث مع مَن إذن؟

نظرت حولها في خوفٍ وقالت:

- لا أعلمُ! لقد ذهَبت إليها فلم أرَ أحدًا غيرَها..

- وماذا حدَث بعد ذلك؟

- ناديتُ عليها، لكنها لم تسمَعنِي ثم بدأت في قِراءة القرآن فتَشنّجَ جسَدُها ووقَعت على الأرض!

اختلطت رائحة الطعام في المطبخ برائحة عِطر أمّي الذكية، فوضَعت إصبعي تحت أنفِها لأشعُر بأنفاسِها، لكن جسَدها كان باردًا وأنفاسها غائبة!

يبدو أنني لم أستوعِب الأمرَ فأخذت أحاول إفاقتها بكلّ الطُرق وأضرُخ..

- عالية.. أمّي.. ماذا بكِ؟

ازداد بكاءُ «راحيل»، وهي تُناديني بخوفٍ، وأنا في عالمٍ آخرَ لا أسمَعها، فقد جعَلت من ساقِي وسادة تحتَ رأسِ أمّي، إنّها ستفيقُ بينَ لحظةٍ وأخرى وستفتحُ عينيها وتقفُ من جديدٍ لتبقَى بينَنا ترعَى شئون البيت، وتطمئن علينا مهما كبرنا، وهُنا رأيتُ «إياد» أمامِي فجأةً لا أعلَم متَى حضَر؟ وكيف دخل؟ فقد كنتُ في دُنيا أخرى، نظر لأمّي نظرةً سريعة ثم قال لـ«راحيل»:

- راحيل.. أحضِري عِطر جدّتك بسرعة، لا تخافِي فقد فقَدت الوعي..

بعد أن عادت «راحيل» أغرق «إياد» أمي بالعطر أملًا في إفاقتِها، لكن لم يُجدِ ما فعَله نفعًا، حينَها أخَذ يتفحّص أمي بعنايةٍ وقد تغَيرت ملامحه، ورأيت عليه الصدمة، اقترب منّي وهو يُبعدني عنها، وأنا أصرُخ وأقاوم وهو يقول بأسَى..

- لا إله إلا الله.. «مورين».. اسمَعِيني..الصراخ لن يُعيدها، فلنَدعُ لها بالرحمة ولنصبر على قضاءِ الله.

لم أُصدّقه وصرَخت وأنا أحتَضِنها وأشاهد «راحيل» تقبِض على ذميتها وتبكي مذعورةً في إحدى زوايا البيت.

***

وبينَما أُحاول إفاقة أمّي دائمًا بإصرارٍ أستيقِظُ من نومي فزعة، وصوت بكاء «راحيل» لا يزالُ في أذني وصورة أمّي الراحلة لا تُفارقني وهي ممدّة على الأرض، وكان سبب الوفاة «هبوط حاد في الدورة الدموية»، أهكذا تنتهِي حياتنا بمنتهَى البساطة؟!

منذُ تلك الليلة البائسة ولا زلت أحلُم بها كل ليلة في منامي، وفي مراتٍ عديدة تختلف الأحداث فتستفيق أمي وتنهض معي مُندهشة من بكائي أنا و«راحيل»، ويدخُل «إياد» من الباب حاملًا الحلوَى لنا كعادته، ومرات قليلة أرَى الحقيقة المُفجعة بحذافيرها مرة أخرى فأستيقظُ باكية كما أبكي الآن، فأعلَم أنني لا زلت لا أتقبّل الفَقْد، وأتذكّر أن ميعاد زفافي قد تأجّل لوقت غير معلومٍ حتى تسمح الظروف، وألوم نفسي كثيرًا؛ لأنني اعتبرت وجودها مضمونًا فلَم أُعبّر عن حُبي لها بالقَدر الكافي، وألومُ نفسي؛ لأنني أتذكّر أنها كانت مُتعبة لشهورٍ ورفَضت الذّهاب للطبيب وأنا لم أُصرّ.

كانت أمي محبوبة من الجميع؛ الجيران، الأقارب، المعارف، الأصدقاء، وحتى الغرباء أحبوها، حتى حارس المقابر لدينا «عارف سعد» والذي ورث العملَ عن أبيه الذي عاد لبلده، عندما أبلَغه أبي أن يُجهز «التربة» لأمّي بدَا مُندهشًا، وفي المقابر علمنا بعد الدفن أن أمي قد هاتفته منذ يومين وقالت له أن يفتَحَ «التربة» ويُجهزها لها! ثم أرسلت له مبلغًا من المال وأكّدت عليه أن ينفذ ما طلبت! قال «عارف» إنه يعملُ منذ صِغره مع والِده في هذه المهنة إلّا أنه لم يُصادف موقفًا مثلَ هذا من قبل، كان لكلماتِه وَقْع صادمٌ علينا! كيف عِلِمتِ يا أمي؟

أتذكّر المشهدَ عندما حضَر زملائي و«باسل» مراسِم الدّفن والعزاء، كنتُ كمَن وَقَع تحت تأثير تنويم مغناطيسى، لا أدري ماذا يحدثُ! لا بد أنني سأعود لأشم رائحة طهي أمّي تملأُ البيتَ مُختلطًا بعِطرها المميّز، هكذا شعرت وكنت أريد أن يرحل الجميع وينتهي الموقف لأراها في البيت.

لقد ابتعث عددًا لا بأس به من أقلام الرصاص، هذه العادة القديمة التي لازمتني في فترات الدراسة يبدو أنها عادت من جديد، ففي وقت الامتحانات السنوية وفترات القلق، كنت أشتري الأقلام الرصاص وأكسرها واحدًا تلوَ الآخر فأستريح، لا أعلم لماذا؟! كانت أمي رحمها الله الوحيدة التي تعلَم هذه العادة عنّي، فكانت تقلق عندما ترى الأقلام المكسورة في القمامة، الآن لا أخشَى أن يراها أحد فمن كانت تراها قد رحلَت.

إنني أتهرّب من الوجَع بكلّ الطرق، حتى إنني أنهَى نفسي عن التفكير في أمي! وكيف رحلت بهدوء هكذا! وأقِف أمام المرآة فأغسل وجهي مرات عديدة في الحمّام، يغمرنِي شعورٌ بأنني أريد أن أفقِد الذّاكرة، أختَبئ تحت ماء الصنبور الجاري ثم أعود أمام المرآة فأرى وَجهًا آخرَ، مَن هذه المرأة التي أراها؟ لقد بهَتت بشرتي البيضاء وسلَكت تجاعيد دقيقة طريقًا واضحًا على جبهَتي، وذبلت عيناي وانطفأت لمعتهما مع رحيل أمي، كما أنني فقَدتُ الكثير من وَزنِي وسقَط الكثير من شعري البني الطويل؛ فاضطررت إلى قَصّه وتركتُه مجعدًا، وأجريتُ بعضَ التعديلات على هيئتي لتتواءم مع مهنتي الجديدة بعيدًا عن الوقار المُتصَنّع الذي مَلِلتُ منه كمحامية سابقة، إن هذا المظهر يُناسبني أكثر، أشعُر وكأنني خلعتُ قيدَ الزّيف، فقد سلمت هذه «القضية المحسومة» -كما وصفتُها- حيث إنني لم أكُن في حالة ذهنية سليمة، تُمكنني من الدفاع عن الأم المخبولة، فقدمت استقالتي لأنهي مرحلة في حياتي، وأسلُك طريقًا أقل توترًا وأكثر مرونة.

***

إن الحياة قاسية، ومفاجآتها ليست بالضرورة سارّة، لكني أحاول تجاوز أحزانِي بالانهماك في العمل، وأستعِدّ لتقديم محتوًى قانوني على «اليوتيوب» بشكل عصري، إن مُعارضةَ أهلي لم تكن تتوافق مع الظروف الجديدة، حيث انعَزَل أبي بعدَ وفاة أمّي في غُرفته لفترةٍ عنّا، بحُجة الاعتكاف للعبادة، ثم بدأ يتنقّل بينَ المساجد لحضورِ دروس الفقه والتفسير ويتغيب لساعات طويلة، حتى إنه تغيّب ليومٍ كاملٍ في أحدِ المرات وقد فرَغ شحن هاتفه، وكِذنا نموت من القلقِ حتى أتى في الصباح، مع ذلك يقول «إياد» إنه يَحمَدِ الله أن أبي خرَج من عُزلته في البيت؛ لأنه حتمًا مُصاب باكتئابٍ سيجلب عليه أمراض الشيخوخة، فكان عليّ أن أرعاه، ورأيت أن رغبتي قد وافقت ظروفي أخيرًا، وهذا فضلٌ كبيرٌ من الله.

والآن، أستعِد لتسجيل فيديو جديد، وبدأت أشتَمُّ روائحَ العطور ومساحيق التجميل المختلفة، إن للروائح ذِكريات لا تنتهِي، والآن بتُّ أتعطّر مثلَ أمي في البيت، وأتذكّر كلمات «إياد» الداعمة لمواصلة ما بدأتُه، لأسجّل بهدوء الفيديو وأنا أنظر إلى الكاميرا بعقةٍ مصطنعة..

- يعتقد الناس أن جريمةَ القتل عُقوبتها الإعدام وهذا غير صحيحٍ؛ لأن جريمة القتل عقوبتها السجن المؤبّد أو السّجن المُشدد وليس الإعدام، نعم.. حتى إذا كان القتل عمدًا! هنا نتساءل: متَى يكون عقاب جريمة القتل الإعدام؟ وهنا أُجيب التساؤل.. بأنّه عندَما يكون القتل موصوفًا، ونتساءل من جديد متى يكونُ القتل موصوفًا؟

أجيب بأنّ المُشرّع المِصري حدّد حالات القتل الموصوف وهي ستّ حالاتٍ:

١ – القتل مع سَبق الإصرار، ٢ – القتل مع التّرصُّد، ٣- القتل مع سبق الإصرار والترصُّد، ٤- القتل المُقترن بجِناية، ٥- القتل المرتبِط بجُنحة، ٦- وأخيرًا القتل بالتّسميم.

وقبل أن أتعمّق أكثر في تقديم المحتوى، لمَحت «راحيل» عند مدخل الغُرفة تحمِل دُميتها التي لم تتركها منذ وفاة أمّي، وتستمِع باهتمام إلى ما أقولُ، توقّفت عن التسجيل وأغلَقت الكاميرا ثم أشَرت إليها بالدخول، نظرت إليّ بعينين شاردتين ثم دخَلت بخُطوات بطيئة.

منذ أن رحَلت أمي لم تعُد «راحيل» الطفلة البريئة التي أعرفُها، وعلى عكس المتوقّع فإنها لم تعُد لبيتِ والديها، وأصرّت على العيش مع والِدي في غُرفته لِتحميه من الموتِ كما تقولُ! وانصاع لها أبواها تنفيذًا لنصائح الطبيب النفسي الذي شخّص حالتها بـ «صدمة عصبية حادة»، لكنه طمأننا أنها ستتحسّن بمرورِ الوقت، لكنها أصبحت قليلةَ الكلام، حادّة النظرات، وقد فقَدت الكثيرَ من وزنِها، اجتهَدت كثيرًا مع «إياد» وأبويها لتنسَى مشهَد فِراق أمّي، لكنها لا تَنساه إلا لسويعات قليلة ثم تعوذ لشرودها وصُراخها حينما تواجه الكوابيس في منامها، وتتصرّف كأنّ أمّي في البيت، ذات مرة رأيتُها تتحدّث وحدها في المطبخ، وكأنّ أمّي معها! أحيانًا أشعُر بالذنب تُجاهها، لكني كلّما أستدرك ما حدَث أُسامح نفسي، إذ كيف لي أن أعلم ميعاد موت أمّي؟! وكيف؟ وأين تموت؟ لا أحدَ يعلمُ.

جلَستُ على سريري؛ فجلست «راحيل» على السرير المُقابل، والذي كان لـ«سما» شقيقتي قبل زواجِها، وبهذا كنت أرَى وَجهي وظهرها في المرآة أمامي، وهُنا رأيت شيئًا عجيبًا، إذ إن جسَد «راحيل» في المرآة بدَا كأنّه جسَد شابّة وليست طِفلة! كانت تنظُر لِي بشُرود وجِدّةٍ في نفسِ الوقت ثم قالت:

- لقد أعجَبني محتوى الفيديو الذي سجّلته الآن.

فسألتها مُتعجبة:

- وهل فَهِمت ما قُلته للتوّ؟!

وهُنا عاد جسَدها لجسَد طفلة! وبعد لحظات تحدّثت بصوتٍ خافتٍ، وهي تنظُر إلى الحائط بجانبي؛ وكأنّ شخصًا يُلقّنها الكلمات:

- لقد فهمت أن ليسَ بالضرورة أن يُحكم على القاتِل بالإعدام.. أي الشّنق.. هل هذا صحيح؟

ابتَسمتُ في ذهول:

- إلى حدٍّ ما..

قالت بنبرةٍ أوضَح:

- لكن هذا ليس عدلًا.. أن يفرّ القاتِلُ بفَعلتِه.

أجبتها بعفوية:

- بالطبع لن يفرّ..

ابتسمَت ابتسامةً عَجيبة، وكأنّ ملامحها تغيّرت، اندهشت لكنني

ذكّرت نفسِي بأنّها ما زالت طِفلة فأردَفتْ:

- أتدرين يا «راحيل»، هذا الحِوار كبير جدًا على عُمرك يا حبيبتي..

قالت بحسمٍ غريب:

- لكنني أُريد أن أفهَمَ..

شعَرت أنها ستستلم رايةَ المُحاماة من والِدي في المستقبل فأردفتْ:

- حسنًا.. لكن باختصار، لقد تم تحديد الشروط الواجب توافرها والتي سَمِعتها قبل دقائق لتنفيذ عقوبة الإعدام.

فكرت قليلًا وهي تقول:

- وكيف للقاضي أن يضمن مثل هذه الأشياء؟

- هناك الكثيْر من التحقيقات والبحث الجنائي، لنتوقّف عن هذا الحديث، أخبريني الآن.. هل تتناولين الغداء معي؟

عادت لشرودها، وقد بدَت حزينةً، وهي تنظُر في عيني وتقول:

- كانت جدّتي تتبع نفس الأسلوب عندما تُحاول إلهائي عن شيءٍ معينٍ..

أدهشني ردّها، لكني تفاجأتُ أن جسَدها في المرآة أصبح جسَد امرأةٍ من جديد! دقّقتُ النظرَ فيه فالتفتت المرأةُ إليّ في المرآة وابتسمَت! العجيب أنها تُشبه أمّي في شبابِها كثيرًا! شَهِقتُ فالتَفتت «راحيل» إلى المرآة ليعودَ كلّ شيء إلى طبيعته، نظَرت إليّ «راحيل» في فزَع وسألتني:

- هل أنتِ بخيرٍ؟

وقبلَ أن أُجيبها سمِعت صوت «إياد» بالخارج يتحدّث مع أبِي بمرحٍ، لقد أحضَر «إياد» الغداء، إنّه يعتنِي بنا جميعًا منذ الوفاة، عندها تركَتنِي «راحيل» وخرَجت متلهفة لرؤيتِه، لقد تحمّلني «إياد» طِيلة الفترة الماضية كثيرًا، بين انعزال، وعصبية وحُزن، لم يتركني لنفسي، ومَا كنتُ أتجاوز فقْدَ أمي بدونه، كما أحدَث «إياد» فرقًا كبيرًا في نفسية «راحيل» وأبي معًا، أحيانًا أحمَد الله على وجوده.

على المائدة كانت «راحيل» تهتم بتفاصيل الطعام المخصّص لجدّها اهتمامًا مُفرطًا، حتى أبدَى «إياد» تعجبه من تصرفاتها وقال ذات مرة إنه يشعُر وكأنّ «راحيل أصبحت والدة جدّها!» من فرط خوفها عليه.

أثناء تناولنا الطعام لاحظنا شرود «راحيل»، بالرغم من أنّ «إياد» قد أحضَر طعامها المفضّل فسألها:

- راحيل حبيبتي.. لماذا لا تأكلين؟

كانت «راحيل» تنظر إلى صورة أمي المعلّقة أمامها على الجِدار وعليها الشريط الأسود وتُحملِق فيها! نظرنا جميعًا إليها في حُزن وقال أبي..

- جدّتك ستكون سعيدة إذا ما أنهَيتي غداءكِ.

نظرت له بحقةٍ وقالت على الفور:

- أنا أعرِف إن كانت سعيدة الآن أم لا يا جدّي..

عندما نظرتُ إلى الصورة على الجدار رأيت خيالًا يمشِي على الحائط! حملَقت فيه أُتابعه على الجُدران أمامي؛ حتى خرج من باب الشقةِ، لكنّني ارتَعبتُ بشدّة عندما تحوّل الخيالُ إلى هيئةِ أمّي وابتسم لي!

***

(٢)

على إحدَى مقاهي القاهرة القديمة وتحديدًا في منطقة «وسط البلد» بالقرب من منزلى، جلَست معه نحتَسِي القهوةَ في صباح هادئ وطقسٍ مثالي غير مُعتاد، غلَب على ملابِسه اللونين الأبيض والأزرق بدرجاتِه، وكأنه وَقَع من السماء أو خرج من البحر، كنّا نتحدّث عن مُلابسات إحدى القضايا، بدَا مهمومًا ومهتمًا بحلّها ربما أكثر منّي، بالرغم من كونِها قضيتي أنا، كان قد أطلق لحيته وشاربه قليلًا، فكانت هيئته أكثر جاذبية بين شعر رأسِه الأبيض، وخليط من الشعر الأسود والأبيض في لحيته، شعَرت معه بألفة كبيرة تعجّبت لها، وكأن أرواحنا تتلاقَى بعد فِراق! وكأننا نعلم عن بعضنا كلّ شيء، لكنه سافر بعيدًا، ثم عاد ليروي لِي قصصَه، ولم أعلم طبيعة علاقتنا بالتحديد.. كان هذا شعوري نحوه! اقترحت أن نتمشّى قليلًا فأومأ موافقًا، وبينما نحن نتمشّى ونتجاذَب أطرافَ الحديث عن موضوعات مختلفة عبَرنا الطريق، ولاحظت أنه أحاطني بذراعه خوفًا عليّ من السيارات، وخشية أن أنفصل عنه في منتصف الطريق، صَعِد هو الرصيف وقد توقفت وأنا أشعر بالارتباك إزاء شعوري نحوَه، قال بصوتٍ رخِيمٍ:

- كنت أتمنّى أن أبقى معكِ وأبادلكِ نفس الشعور.. لكنني أعدك أن أساعدك متى احتجتِ المساعدة.

أردفتُ:

- لكنني لا أحتاج مساعدتك!

ابتسم، وقال وهو يمدُّ يدَه ليساعدني في تخطّي حُفرة في الأرض:

- سآتي به، وسنُساعدك معًا.

تعجّبت من كلماته التي لم أفهمها، مِن هو الذي سيأتي بهِ؟ مدَدتُ يدي إليه فأمسكتْ يدَه، وعندما تجاوزت الحُفرة وجَدت رجلًا آخرَ يقِفُ في انتظاري، لكن ملامحه غير واضحة، لكنني ارتحت لوجوده، ثم فقَدتُ وَعيي فجأة، وعندما استعدته كُنت أشعر بأمانٍ غير مُبرر يغمرني، وكان آخر شيء أراه هو «باسل» والرجل، وهما يسندان جسدِي خشية أن أقع على الأرض!.

استيقظت من نومِي بهذا الإحساس العجيب، لم أشعُر بالراحة والاطمئنان كما شعَرت في هذا الحُلم من قبلُ! لكن هل يساعدني حقًّا «باسل» في شيء؟ ومَن هو الرجل الذي ينتظرني؟ إنه ليس «إياد»، ما أعلمه أنني لازمني شعور بالذنب تجاه «إياد» على الفور وكأنّ الحُلم حقيقة! وتذكّرت دعاء أمي بعدم إتمام زواجي منه، جلَست في سريري أسوّي خصلات شعري المبعثرة إلى الوراء، أحاول أن أفهَم هل لعقلي الباطن دور في هذا الحُلم الغريب؟ أم أنها رؤية لا يدَ لِي فيها؟ إن مرات تواصلنا عبر الهاتف كان يطمئن فيها على أبي بعد وفاة أمي، وكان يُعرب عن قلقه عليهِ حينما رآه في العزاء حزينًا وتائِهًا.

أخَذتُ نَفَسًا عميقًا وغلبتني الحيرة، وقرّرت ألّا أفكّر في الأمر ثانية، وعندها شَمّمت رائحة كبريت! هل هناك حريق؟! إن عقاربَ الساعة تُشير الى الثالثة فجرًا! إن الرائحة بداخل البيت ولا شك! كان هذا سببًا كافيًا لفزعي، نفضتُ الفِراش عني وهرعتُ أبحث عن

مصدر الرائحة، إن أمّي -رحمها الله- قد طَلَت كلّ جدران البيت باللون الأبيض، فكان انعكاسه يجعل الجدران مُضيئة حتى في الظلام الحالك، لقد جعلت من بيتنا تحفة كلاسيكية على أرض خشبيةٍ عتيقةٍ، فوقها كثير من السجاد الفخم الصغير المُتناثر، الكثير من الزرع الطبيعي في الأركان، بجانِبه وحدات إضاءة جانبية لإضفاء السكينة والهدوء، بقِيت أتنقّل بين السجاد دون صوت، وبين خشب الباركيه الذي أحدَث أصواتًا خافِتة، وقد خُيل إليّ أنه يُرشدني لمكان الرائحة، خرجتُ من الطُرقة الطويلة التي تضم غرف النوم، والحمام الكبير إلى غرفة الاستقبال الواسعة والتي بها المطبخ وحمام صغير، وبها أيضًا البلكون الواسع الذي يضمها ويضم غرفة الصالون أمامي أيضًا، للصالون بابٌ كبيرٌ أبيض اللون منقسم إلى جزأين، وبه الكثير من المربعات الزجاجية الشفافة، مهلًا.. هل رأيت خيالًا يجري خلفه الآن؟ بالطبع لا، عندما إقتربت من المطبخ سمعت صوت بكاء! نعم.. إنه صوت بكاء واضح لكنه ليس لطِفلٍ واحدٍ إنهم أطفال! اقتربتُ أكثر من مدخل المطبخ فتوقّفت أصواتُ الأطفال!

ورأيت مشهدًا غريبًا!

إن «راحيل» تقف أمام حوض المطبخ مُمسكة بذميتها مُشتعلة! وتبتسِم، وهي تشاهدها تحترق! كانت تنظر إلى إحدى زوايا المطبخ وتقول بلهجةٍ آمِرة..

- توقّفن عن البكاء.

صرختُ فيها:

- راحيل.. إلى مَن تتحدّثين؟

الْتفتتِ التفاتةً لا أُنكر أنها أخافتنى! لم تتفاجأ، وكأنها كانت تعلمُ بمجيئي قبل أن أراها! هل هذا كابوس أم ماذا؟ نظرت إلى نفس المكان وقالت:

- هؤلاء الأطفال يشتكون ممّا حدَث معَهم.. أريد أن أساعدَهم.

ولأوّل مرة أتلعثمُ أمامَها..

- راحيل.. ماذا تفعلين الآن؟ النارُ تقتربُ من أصابعك!!

ابتسمت ابتسامة عجيبةً ولم تُجِبنِي، والنار في الدُمية قد اتّحدت مع أصابعها! فما كان منّي إلّا أن هرعتُ إليها فأخَذت الدُمية بالقُوة، وفتحتُ صنبورَ المِياه لأُطفئها، هل لمَحت نجمة خُماسية مرسومة بداخل دائرةِ أطرافها مُشتعلة باللون الأحمر على الدُمية؟ تبدو كأنها تَمِيمة أو تعويذة قَدِيمة! حينما أطفأت النار الدُمية لم يتبقَّ إلّا رماد، ولم يكن هناك شيء واضح بها! زفرت أنفاسِي وأنا ألتفت لـ«راحيل» فلم أجِدها! هرعتُ إلى غُرفة أبي لأجدها نائمة بجانبِه تحتضنُ دُميتها!!

هل جُننتُ؟! أم أحلُم؟!! ولكن رائحة الحريق لا تزال موجودةً! والعجيب أنني لمَحتُ نفسَ النجمة تُضيء وتنطفِئ على رقبة «راحيل»! لقد بدأتُ أتشكّك في سلامَتِي العقلية، إذ إن ما أراه لا يُصدّق ولا يُمكن أن يحدُثَ! كانت يدِي ترتعشُ، حينما استيقظ أبي مُتثائبًا.. وهو يحاول رؤية ساعته في الظلام فقال:

- مورين.. كم الساعة الآن... هل أنتِ بخيرٍ؟

بدَا أبي مُرهقًا فأردتُ أن يُكملَ نومَه، وعزَمت أن أرَى الرسم على

رقبةِ «راحيل» وتصرفاتها الغريبة في الصباح، فأردفتُ بتَلعثمٍ وقد ملأ جبينِي العرقُ، وعيني عالِقة على «راحيل» في قلق:

- لا شيء يا أبي.. كنتُ أتفقدكُما.. واصِلا نومكُما.

حينها فتحت «راحيل» عينيها واحتضنت دميتها وتبسمت في خُبث لم أختبره من قبل معها! ارتبكتُ وازدادت رعشةُ يدي لما رأيت الدُمية اللعينة التي احترقت أمامي سليمةً! أطفأتُ نور الغرفة، وأنا أحاول تهدئة نفسي والسيطرة على رعشةِ يدي، فذهبت إلى غرفتي وقد طار النوم من عيني فجلست أفكّر وقد تملّكتني الحيرة والخوف على «راحيل»، إنها تتصرف بغرابة، أشعر أنها ليست الطفلة التي ربيتها وكأنها ابنتى، يقول «إياد»: إن كل هذا طبيعى، وإنني يجب أن أُعطيها فرصتها الكاملة في التعافِي بعد صدمة موت أمّي؛ والتي كان لها أثر بالغٌ عليها لصغر سنّها، إذ إنها بدأت تسألنا بشكل متكررٍ عن: كيف يقضي الميت وقته مع الله؟ وهل يسمعنا أو يرانا؟ وهل يعرف أخبارنا؟ هل يبدو بهيئته أم يتحوّل إلى هيكل عظمي؟ وأسئلة كثيرة على نفس الشاكلة.

ذهبت مرة أخرى إلى المطبخ كي أتفحص بقايا الدُمية، لكن يا هول ما رأيت، لم يكن هناك شيء! لم تكن هناك آثارٌ للحرق من الأساس! رائحة الحريق فقط تؤكد ما رأيت! هل أمرُّ بحالة هذيان؟ عدت لغرفتي متوترة حتى إن رعشةً خفيفة أصابت كفّي لم أستطع التحكّم بها.

جلستُ على سريري أراجع كل ما حدَث فطغى على المشهدِ شكل «راحيل» المريب، أمامَ سريري مكتبٌ صغير أهدته لي أمي أثناء

سنوات دراستي، قمت واستخرجت عددًا من الأقلام الرصاص، وبعد سماعي لصوت طقطقة الأقلام وهي تتكسر بدأت أشعر بالهدوء اللحظي وربما خفّت رعشة يدي.

لم أشعر بشيءٍ إلا وأنا أسمع إشعار تطبيق «الواتس آب»، كان «إياد» يُعلِمني أنه في طريقه إلينا بالفطور كما وعَد أبي قبل موعد برنامجه الصباحي في الإذاعة، لقد مرت أكثر من أربع ساعات دون أن أشعر!

كان لا بد أن أقف تحت المياه لأستفيقَ وأنفض كل المشاعر المتضاربة التي مررتُ بها في الليلة السابقة، لا أبذل جهدًا لأعلمَ هل وصل «إياد» أم لا؟ إن صوته يملأ المكانَ ضحِكًا وبهجة، بعد أن انتهيت.. خرجت إليهم أتصنع المرَح، لم أرَ معنويات أبي بهذا الجمال منذ فِراق أمي، كان يضحك ويتأملني ويطبطبُ على «إياد» بعفويةٍ وطيبةٍ لطالما عهدتها فيه، من الواضح أن «إياد» قام بإعداد الفطور ولم يتبقَّ إلا أن نجتمع حولَه.

على مائدة الإفطار كانت «راحيل» تبدو طبيعية! ولم يكن للوشمِ أثرًا! هل أسألها لاحقًا عما حدَث؟ لكني لا أملك دليلًا واحدًا! بقيت أراقبها عن كثبٍ، وقد لاحظ «إياد» ذلك، فكان بين الحين والآخر يُشير إليّ لأُكمل فطوري. قال أبي وهو يشرب الشاي..

- حدِّثني عن موضوع البرنامج الجديد.

عندما يصبح الحديث عن الإذاعة تنفرج أسارير «إياد».. التفت بجسده نحو أبي وهو يقول بحماسٍ:

- عن الصِّدق في العلاقات.. كل العلاقات يقدر لها النجاح فقط مع الصَّدق..

أردف أبي..

- عظيم.. هذا صحيحٌ، أقرب طريق بين نقطتين هو الخط المستقيم، آهٍ.. كِدت أنسى أن أخبركم حتى لا تقلقا كالعادةِ، سوف أذهبُ للقاءِ بعض الأصدقاء في مسجد جديد لأحضُر درسَ فقهٍ.

سأله «إياد»:

- أين يا عمّي؟

- في المقطم.

- هل ستذهب مع عمي عبد الحكيم؟ أم أُقلكما بسيارتي؟

أشار أبي بالنفي وأردف:

- ربما ينضم إلينا «حكيم» لاحقًا، هذا صديق جديد سيُقلني لنذهب معًا، كُفّ عن القلق.. أنا بخيرٍ.

أردفت بنبرة مازحة:

- أصبحتَ غامضًا يا سيد هاشم..

حينها عادت «راحيل» لنفس الابتسامة المريبة وقالت:

- ليس غامضًا يا «مورين»، إنه يُخبرنا بكل شيء ولا يُخفي علينا الأحداثَ.

ذهبت ابتسامتي وأنا أسئلها في جِدية:

- ماذا تقصدين؟

نظَرت إلى «إياد» وقد تحوّلت ابتسامتها إلى خُبث غريبٍ وقالت بنبرةٍ هادئة:

- أعني الجلوس في مقهًى وَسطَ البلدِ مع الغُرباء، والسماح لهم بالتقرُّب!

نظر إليّ «إياد» وقد تباطأ في مضغِ الطعام، ووسط مُلاحقة نظَرات الشك منه ومن أبي كنتُ في عالمٍ آخرَ، إذِ اختلط عليّ الحقيقة بالحُلم، هل كان ما مررتُ به حقيقيًا؟ وإذا كان كذلك فأنا متأكدة أن «راحيل» لم تكُن معي! التفت لها «إياد» يسألُها..

- مَن الذي جلس في مقهًى بزُفقة الغُرباء يا حبيبتي؟

نظَر إليّ أبي قلقًا، وكدت أن أتعاملَ مع الموقف وكأنه حقيقة، وقبل أن أتحدّث ابتسمت لي وقالت:

- إنه فيلمٌ رأيتُه مع «مورين»، كانت بطلتُه خائنة لحبيبِها.

لم ينطلِ حديثها على أبي و«إياد» لكن أبي وجّه لِي الحديثَ لائمًا..

- لا يجب أن تُشاهد «راحيل» مثل هذه النوعية من الأفلام يا «مورين».

لم أُجِبه لكوني في حالة من الدهشةِ والغيظِ، إذ إنني لم أستطع أن أفصِح عن حُلمي وكأنه شيء مخزٍ أمام «إياد»! بقِيتُ شاردةً، بينما وقع الشكُ في قلب «إياد» منذ تلك اللحظة.

لكنني سأجنُ.. كيف علِمت «راحيل» بأحلامِي!

***

(٣)

مرّ شهرٌ كاملٌ و«إياد» يتجنّبني ويتعامل بشكلٍ رسميّ، إنه يبتعد عني بوضوح، حدث هذا بعد أن وقفت «راحيل» تهمِس في أذنه وتنظُر لِي مُتوعدة.. وهي تودّعه عند الباب بعد الفطور! ورأيت ملامح «إياد» تتغير كُليًا، وقد بدَا مصدومًا وهو ينظر لى، حينها ظنّ أبي أنها تُريد منه حلوى أو شيئًا من هذا القَبيل فلم يهتم، حيث إن علاقة «إياد» بـ«راحيل» قوية، أما أنا فلم أسأله عن همس «راحيل» وتعمّدت أن أصطنعَ التجاهُل معه، كما تعمّدت عدم اهتمامي لسلوكه الجديد؛ ذلك لأنني في الحقيقة لم أُذنب بحقّه، كان كل الموضوع مجرد حُلم، ثم كيف علمت «راحيل» بحُلمي! هذا ما لم أتوصّل إلى حلّه.

الغريبُ أن «باسل» هاتفني لأوّل مرة منذ سنواتٍ، ولم يسبقْ له التواصل معي بشكلٍ مباشر حتى قبل خطوبتي، يقول: إنه اكتشف أن قضية الأم التي ذبحت صغيرتها ليست «محسومة» كما ظننت. شعَرت بسُخريته من رأيي عن القضية، لكنه أكمَل أنه تعاون مع أحد الزملاء في كشف بعض الحقائق، وأنه يقترح أن أسردَ وقائعها عبرَ مواقع التواصل الاجتماعي كما أفعل كصانِعةِ محتوًى خاصٌ بأغرب القضايا، وبما أنني أصبحت محامية سابقة تهتم للشأن القانوني بكلّ أشكاله وحوادثه، لكنني تجنبتُ التواصلَ معه بشكل لفَت نظره، حتى إنه سألني بشكل مباشرٍ إذا ما كنتُ قلقة بشأن أمرٍ ما؟ فأجبته أن «راحيل» ابنة شقيقتي تُعاني من تأثير صدمة موت جدّتها إلى الآن، وأنها مضطربة بشكل يجعل التعامل معها صعبًا ومتعبًا للأعصاب،

فأشار أنه مُستعد للمساعدةِ متى أردت، لا أعلم لماذا أثّر الحُلم على سلوكي إلى هذه الدرجة؟ أما الأغرب أنني عندما سألت «راحيل» من أين جاءت بهذا بالحديثِ عن المقهَى أنكَرت كل شيء! وقالت إنها لا تتذكّر أي شيء كهذا! لقد رأيتُ الصِّدق في عينيها، لم تكن تكذب حينما سألتُها! كيف أفسّر كل ما حدَث؟ لا أملك إجابات شافية لعقلي.

لذلك شعرت برغبة في البَوح عن كل ذلك، كان أبي يجلس مع «راحيل» في البلكون الواسع المستطيل ذي الأعمدة الأربعة الرومانيةِ في واجهته، إنه مكانٌ مثالي شهد على ذكرياتي مع أمي الحبيبة ونصائحها التي لا تنتهي كوصايا، وكأنها تعلم أنها ستُفارقنا، وشهِد على الكثيرِ من المواقف مع «إياد»، وشهد على مراحل دراستي وشقيقتي «سما»، كنا نذاكر في البلكون، ونتلصّص على الجيرانِ أحيانًا؛ فتنهرنا أمي، كما تفعل «راحيل» الآنَ وأنهرها أنا، إن شارعنا «البرجاس»، شارع راقٍ وصغير وضيّق، به سفارة لدولة أجنبيه، أشعر فيه بالحمِيمية لقُرب العمائر من بعضها البعض، ولكون عمارتنا تشمل ثلاثة طوابق فقط على الطراز القديم، لكن العيب الوحيد هو أن أدق الأصوات هنا مسموعة، فإذا بكيت أو ضحكت فالجميعُ سيعلم ذلك، في الماضي كنا نميز الأصوات ونعلم من أي بيت تأتي، أما الآن فقد غادر أغلب السكان شُققَهم ليعيشوا في المجمعات السكنية الأكثر خصوصية، أما أبي فقد رفض ترك «جاردن سيتي» رغم مقدرته، كانت «راحيل» تتحدث إلى «سما» في التليفون، وأثناء حديثهما ذهَبت لغرفة أبي، جلست مكانها وكان أبي ينظر إلى سيارته الفصطفة أمام البيت ويقول:

- بعد قليلٍ سأنظّف السيارة وأديرها لأختبر البطارية، فلم أستعملها

منذ فترة.

لم أعلق فتفحّصني أبي بنظرات حانيةٍ وقال:

- ماذا يشغل بال حبيبتي؟

للحظاتٍ فكرت ألّا أشغل باله، لكنني كنت بحاجة إلى الفضفضة، ودون مقدمات سردت له كل شيء، ابتسم أبي وقال:

- أنا سعيدٌ؛ لأنك مرهفة الحسّ والمشاعر وتتمتعين بضمير حي، لا شيء يدينك يا «مورين»، إنه مجرد حُلم.. ولكن..

ارتقبت كلماته فأردف وهو ينظر في عينى:

- لا بد أن تتأكدي من مشاعرك تجاه «إياد»..

اندهشت! وقبل أن أتحدث أشار لي بالسكوت وأكمل:

- أعلم ما يدور ببالكِ، ولكن حُلمًا كهذا ربما لا يأتي من فراغ أيضًا، لقد رأيتُه يوم عزاء والدتك، ورغم قسوة الظرف فإنني أتذكّره جيدًا لأنه شخصية مميزة، وأعتقد أن «إياد» يتذكره أيضًا.

كنت قد نسيت أنه حضر العزاء مع زملائي في المكتب، فأكمل أبي وقد بدَا مُنشغلًا..

- إن العقل يُسجل كل شيء ثم يعود به إلى الواقع ليُريكِ الحقيقة، ربما كانت مشاعر مُحزنة ولم تفهميها لذلك، وقبل أن تتخِذي خُطوات وقرارات مصيرية عليكِ التروّي، هل تحدثتما مرةً أخرى؟

أومأت بالنفي فأكمل حديثه:

- جميلٌ، كل ما أريده أن تكون مشاعرك صادقة تجاه زوجك المُستقبلي، والآن.. اذهبي إلى «إياد» في الإستوديو واسأليه عن سبب ابتعادِه.. وإذا كان الأمر كما تعتقدين وإذا كانت «راحيلُ» قد «دخلت أحلامكِ» وهو أمرٌ لا أفهمه وقالت له شيئًا؛ كهذا فعليكِ أن تصارحيه بكلّ شيء حتى وإن كان مجرد حُلم وغير منطقي..

زاغت عيناي في تردُّد وفَهم أبي فقال:

- صدقيني سيقدّر هذا.. الموضوع الأهم الذي أردت أن أحدثك عنه هو «راحيل»، لقد أصبحت مُريبة جدًا، إنها تتحدّث وهي نائمة بألفاظ نابية وتُصدر أصواتًا مُخيفة.. كل يوم أقلق قُبيل الفجر لأقرأ القرآن وأرقيها فتهدأ.. وفي الصباح لا تتذكر شيئًا! هلّا تابعتي الطبيب النفسي؟

حينها جاءت «راحيل» تتفحصنا وتنقل عينيها بيني وبين أبي وتبتسم في خُبث، أردَفت وأنا أنظر إليها:

- سأفعل يا أبي.

قالت «راحيل» حينَها:

- إن «إياد» سيفرح عندما يراكِ.. هل ستفرحين مثلَه؟

نظرتْ إلى أبي مذهولة وهو ينظر إليها ويقول زاجرًا:

- راحيل.. ألم أقل لك ألف مرة إن التصنت حرام؟

قالت في براءة:

- لقد كان صوتكَ عالٍ يا جدّي..

كان ردُّها جاهزًا، لكن صوته لم يكن كذلك، ولم تكن في مُحيطنا لتسمعنا، لقد كانت في غرفة النوم، وهي بعيدة عن البلكون، كيف سمِعت حديثنا! ابتسمت «راحيل» له.. ولا أعلم لماذا أخافتني ابتسامتها؟ إنها ليست «راحيل» الطفلة التي ربيتها، لا بد أن أُحدث الطبيب.

قرّرت أن أتبع نصيحة أبي وأذهب إلى «إياد»، إنني أتألّم لكونه يشك في أمرِي، لا بد أنه يتألم فأنا أعلم مدَى حُبه لِي، ولكني لم أفعل ما يُشين، قُمت لأستعدّ وقد سيطرت «راحيل» على تفكيرى، لكنني أردت أن أصفّي ذهني ولا أفكر في شيء، بعد خروجي من باب الشقة، زفرت نَفَسًا عميقًا وهبطت السُلم الرخامي الأبيض، تجاوزت باب العمارة المُعشق بزجاجٍ مُلون، يُحيط به حديد على شكل قوس، عبرت حديقة العمارة الصغيرة لأقف عند مدخل عمارتنا الخشبي الرئيسي العتيق الأنيق الطراز، كانت سيارتي تصطفُّ أمام عمارتنا، وقبل أن أدخلها نظرت إلى البلكون عبر أوراق الشجر المُتدلية من الشجرة العجوز في الحديقة، إنّ «راحيل» تتابعني وتتحدّث إلى أبي، وتُشير نحو شيء في الشارع فوقف أبي ليراه!

أفاقني من متابعتي لهما صوت صفارة إغلاق سيارة تصطف أمامي، التفتُّ باتجاهها؛ فرأيت رجلًا يحمل حقيبة سفر ويبتسم في دهشةٍ، ونظراته تجول بيني وبين العمارة! ما هذا الذي يحدُث لِي؟ إنه «باسل»! تقدّم ليصافحنى، ورأيت «راحيل» قد أسندت رأسها على راحة يدها تتأملنا في البلكون مع أبي، تحدث «باسل» بعفوية:

- أهلًا «مورين».. صدفة عظيمة..

تقدم وقال:

- إذن نحنُ جيران.. ظننتك من سكانِ مدينة نصر؟

- أهلًا «باسل».. نعم هذا بيتى.. وأنت؟

أشار إلى عمارة تقع بعد بيتنا بقليلٍ في آخر شارعنا الصغير وقال:

- لقد وُلدتُ هنا في بيت جدّتي لأمي.. عجيب أننا لم نتقابل صغارًا! ربما لأنني أكبر منك بعدةِ سنوات.

نظرتُ إلى حقيبته وقلت:

- ربما.. وهل ستنتقل للعيشِ فيه؟

- بشكل مؤقتٍ، أحيانًا أمكث فيه لأستريح من العالم.

لم يذكر أين يقطن! لكنه كان يتحدث وكأننا أصدقاء قُدامى ويبدو مهمومًا، أردفت:

- جميلٌ.. هل هناك جديد في القضية المحسومة؟

أردف بحماس:

- بالطبع.. عندما تسردينها سيتابعك الملايين وستكتسبين شُهرة واسعة، لاحقًا أوافيكِ بالتفاصيل.

أرى «راحيل» ما زالت تتابعنا وقد انضم إليها أبي في فضولٍ، بدَا عليّ التوتر؛ فلاحظ «باسل» ولوّح لأبي محييًا إيّاه وأردف:

- هل والدك بخيرٍ؟

- لقد تحسّن والحمد لله.

- لقد تقبّل الأمر.

حيّاه أبي بإشارة خفيفة، وسألني «باسل»:

- هل هذه «راحيل» ابنه شقيقتكِ؟

- نعم..

شعرت أنه يريد أن يطول الحديث وهو يقول:

- طفلة جميلة..

- نعم.. اسمح لي لقد تأخرت على «إياد» خطيبي..

ابتسَم وقال..

- بالطبع، سلامي إليه.

عندما مدّ يده يصافحني تذكرت الحُلم، ورجوت الله ألّا يُلاحظ ارتباكي، فأنا منذ ذلك الحين أفكر في تفسير الحُلم، هل يساعدني «باسل» في شيء ما في المستقبل؟ وهل للرجل الغامض في الحلم دَور؟ بينما اتجه حيث بيت جدّته كنت بداخل سيارتي أراقب ابتسامة «راحيل» الواسعة وأبي يراقب «باسلًا».

بدأتُ أرتب أسئلتي وإجاباتي في عقلي طوال الطريق إلى «إياد»، وأخيرًا وصلت واستقللتُ المِصعد للإستوديو، عندما خرجت منه سمِعت صوت «راحيل» تناديني «موريييييين»! التفتُ ورائي بعفوية لكنني تذكرت أني وحدي في المِصعد! إن «راحيل» تسيطر على أفكاري، تقدمت نحو باب الإستوديو، استقبلني الموظفون بتَرحاب، إنها ليست المرة الأولى التي أزوره، جلست أحتسي القهوةَ وأنتظره.

رحبت بي على الفور «همسة زعتر» زميلته في العمل، واصطحبتني إلى مكتبها لحين انتهاء «إياد» من برنامجه، إن برنامجها مخصّص للمشاكل العاطفية، لقد ساعدها «إياد» في بداية عملها كثيرًا، أي امرأة عاقلة ستغِير من «همسة»؛ فهي امرأة مثيرة، كلها حيوية وتشع نشاطًا وذكاءً، لا تتقيد بقواعد فيما يخص مظهرها، فكلما أراها كانت تكشفُ أكثر مما تستر، وفي كلّ مكان مثيرٍ في جسدها تجدُ وشمًا رمزيًا، متوسطة القامة، بيضاء اللون، شعرها قصير أسود، ولها عينان عسليتان واسعتان، وشفتان مكتنزتان، وملامح عربية أصيلة؛ لذلك لا تملك حظًا من القبول لدى بنات حواء اللاتي يَغَرنَ منها، لكنها عبرت عن حُسن نيتها عندما أصلحت علاقتي بـ«إياد» أكثر من مرةٍ، وأعلم أنها تعتني بـ«راحيل» عندما يصطحبها «إياد» معه، قالت لي «راحيل» أكثر من مرةٍ إنها تحبها؛ لأنها تجعلها تتحدث في الميكروفون وتصنع فيديوهات ثُبهرها كطفلة، وتأتي لها بكل ما نمنعه نحنُ عنها من مأكولاتٍ.

جلسنا نحتسي القهوة، وقد أبديت إعجابي بالوشم الجديد وملأ «الفيلر» الذي حدّد ذقنها وجعلها أكثر إثارة، وكانت تحثني على التجربة فأضحك وأومئ بالموافقة لكي أنهى الحديثَ.

أخيرًا انتهى برنامج «إياد» ودعاني لمكتبه، كان يرتدي قميصًا أبيضَ مملوءًا بالعقوب على غِرار قماش «الدانتيل» الحريمي، وسروالًا أحمرًا لقد تحدّثت معه مرارًا أنه لا بأس بأن يرتدي ما يحلو له، ولكن ليس لهذا الحدّ، شعَرت أنني لا أستطيعُ الخروج معه في هذا اللباس السخيفِ، وكأننا تبادلنا الأدوارا أغمضت عيني وتجاوزتُ

تعليقي حتى أركز على الموضوع الأساسى، لكنني وجدت على مكتبه حقيبة بها شيء أسود، فسألته عن ماهيته في محاولة لتغيير مسار تفكيري فأجاب وهو ينظر إليه والضيق باديًا عليه:

- إنه فستان لـ«راحيل»..

ابتسمت في حنوٍ وأنا أفكّر في مدى حُبه لعائلتي وأقدّر ذلك، فقلت مُداعبة:

- فستانٌ أسود! ليس مناسبًا لطفلة!

- لقد أعجبني فاشتريته.

حينها رأيت بجانب الفستان ميدالية عجيبة، لقد رأيت هذا الشكل من قبل.. إنها نجمة بداخل دائرة أطرافها مُشتعلة! إنها نفس الرسمة التي رأيتها في الورقة، فحرقتها ثم رأيتها على رقبة «راحيل» واختفت، نظرت إليه في شكٍ وسألته:

- من أين أتيت بهذه الميدالية؟

أجابني ببساطة:

- لقد أعطتني إياها «راحيل».

أجبته بدهشة:

- ومن أين جاءت بها «راحيل»؟

مطّ شفتيه بتعجبٍ وقال:

- لا أدرى.. ماذا بها؟

- أظنها تميمة قديمة، فمن أين جاءت بها؟!

ضحك «إياد» أخيرًا وقال بسخرية:

- هذا ما ينقصنا، لم أعلم أنكِ تؤمنين بهذه الأشياء! ولكن كيف تعلم «راحيل» بالتمائم والتعاويذ يا أستاذة مورين؟

شعرت أنني ربما أعطيت الحدَث أكبر مما يستحق، فربما جاءت بها من المدرسة أو حتى ابتاعَتها، فهذه الأشياء منتشرة في كثير من الأماكن ولا أحدَ يُدقق في ماهية الأشكال، عندها سألت «إياد» عن سبب ابتعادِه؛ فبدَت علامات الغضبِ على وجهه، غلب الصمت لهوانٍ حتى قال ما جعل عقلي يطير:

- مورين.. تعلمين أنني أثقُ بكِ تمام الثقة، لكن.. صارحيني.. هل «باسل»..

واختنق صوته وتأكدت من صِدق حدسي، انفعلتُ وأوشكت أن أوضح أن كل ما حدَث كان حلمًا، لكنه باغتني بقولِه..

- قالت «راحيل» إنها رأتك معه أمام البيت تتحدثان في حميمية واضحة.. لقد رأيته في أكثر من مناسبة، ثم.. لماذا لم تُخبريني من قبل أنه جاركم؟ أيوجد بيننا أسرار؟ ظننت علاقتنا مختلفة!

اندهشت وخفَت صوتي وأنا أسأله..

- هل قالت لك هذا قبل قليل؟

قاطعني على الفور..

- بالطبع لا.. عندما هممت بالمغادرة بعد الفطور في ذلك اليوم.

أردفت شاردة..

- مستحيل!

- لماذا؟

نظرتْ له في ثباتٍ وأنا أقول:

- لأنني قابلت «باسل» صدفة اليوم قبل ساعتين فقط من الآن أمام العمارة، وكانت المرة الأولى فلم يحدث أن قابلته تحت بيتنا أبدًا، وعلمت اليوم فقط أن جدّته جارتنا.. كيف عرفت «راحيل» بكل هذا قبل شهر مضَى؟

بدَا «إياد» مُتحيرًا وقال:

- لا أفهم شيئًا.. أتقصدين أن هذا لم يحدث حينَها وحدَث فقط منذ ساعتين؟!

- نعم... هل تملك تفسيرًا؟ إن «باسل» مجرد ضابط مباحث وصديق لكل المحامين في عملي السابق، ولا تربطني به صلة قوية.. هل عليّ أن أوضح لك؟ لم يسلك الشك يومًا طريقًا إلينا..

وضع «إياد» يده على رأسه وكأنه يحل لغزًا وأردف بحيرة..

- أعتذر منك، إنني أحبك وأغار عليك، لكن فكّري للحظات.. ماذا تستفيد طفلة مثل «راحيل» لتوقِع بيننا؟ ثم كيف علِمت الحدث قبل وقوعه؟

انتهزتْ الفرصة وسردتْ له التغيير الذي طرأ على «راحيل» منذ موت أمي، وما رأيته في المطبخ وسماعها لحديثٍ بعيد عنها لأمتار

اليوم، وما حكاه لِي أبي، كان «إياد» ينفعل مع قولي وقد عبست جبهته تمامًا ثم قال:

- لا علاقة للطبيب النفسي بهذا يا «مورين».

أردفث في قلقٍ:

- ماذا تعني؟

أجاب بهدوء:

- دعيني أستشير «همسة»، لقد ساعدت أحد المستمعات منذ فترة، وقد شُفيت تمامًا، أتذكّر أنه كان سِحرًا.. لِنتروّى في الأمر الآن إلى أن نتأكّد، لكن لا بد من المُخاطرة على كل حالٍ.

أردفث مضطربة بصوت خافتٍ لم يسمعه «إياد» وأنا أكاد أنهار من القلق..

- سِحرا

***

(٤)

لم أشعر بالطريق من الإستوديو إلى حي «جاردن سيتي» المنعزل عن صخب العاصمة، بالرغم من موقعه في وسطها، كان الليل قد خيّم على شارعنا الصغير، فأحدث أجواءً غامضة طالما أثارت أغوار النفس بخليط معقدٍ أحبه وأهابه في نفس الوقت.

باب الشقة المُنقسم إلى نصفين؛ أحدهما مُثبت، والآخر يتحرك، بهما شُراعتان زجاجيتان عليهما رسومات مُلونة، الزجاج يكشف بعض الخيالات بداخل الشقة، سمِعت صوت قَهقَهة لا آلَفه بالداخلِ، لكن كان من الجيد أن أسمع قهقهة أبي التي لم أسمعها منذ وفاةِ أمي، لعلّه صديقه القديم «عبد الحكيم».

دخلتُ الشقة وأغلقت البابَ بهدوء، كانت غرفة الاستقبال خالية لكن وحدات الإضاءة في الأركان مضاءة، لا بد أنهم في غُرفة الصالون، ذهبت إلى الصالون وخلف بابه الزجاجي كان أبي وبجانبه «راحيل» أمامي يجلسان على الكنبة الكبيرة ويضحكان، كان أبي يحتضنُها وقد بدَت طبيعية مثل سابق عهدها، وهناك شخصٌ يجلسُ أمامهما على الكرسى، نظرَا إليّ، وأشار أبي لِي بالدخول، شعرت بالبهجة تملأ البيت، عندما فتحت الباب قام الرجلُ من مكانه والتفتَ إليّ، لم أخفِ انْدِهاشي، صافحني للمرة الثانية في نفس اليوم وقال:

- لا بد أنك تتساءلين الآن، ماذا تفعل هنا يا «باسل»؟

لم أُجِبه بينما كنت أتفحص ملبسه الكلاسيكي في ثوانٍ، كان يرتدي قميصًا أسود وسروالًا من الجينز الأزرق، وهنا انتبهت أن

لباسل تأثيرًا سلبيًا على علاقتي بـ«إياد»، إذ إن عقلي بدأ في المقارنة كما كانت تفعل أمي رحمها الله، هل سأصبح تقليدية مثلها؟ مرّت لحظاتٍ وأنا أتنقل بين عينيه وبين أبي مُتسائلة، فقال أبي:

- كنت أنظف سيارتي واكتشفت أن البطارية تحتاج إلى شحنٍ، وكان «باسل» يستقل سيارته؛ فعرض عليّ المساعدة..

أردف «باسل» وكأنه كان مُرغمًا:

- فدعاني لأحتسِي القهوة معه.

قال أبي بودٍّ

- لقد قبضتْ عليه، لا بد أنه مشغولٌ في كل الأوقات.

لمحتْ «راحيل» تنظرُ إلينا بفضولٍ، فقلت:

- شرفتنا يا «باسل»..

أردف أبي:

- اجلسِي يا «مورين»، لقد حكى لي «باسل» عن تطورات قضية الأم التي ذبحت طفلتها، تذكُرينها؟

جلسنا ونظرت إلى «باسل» وأنا أقول في نبرة مُراوغة:

- بالطبع، القضية المحسومة.

ابتسم «باسل».. في حين أكمل أبي في حماسٍ:

- إن «باسل» يوافقني الرأي في أن المرأة ليست مريضة نفسيًا..

سألت «باسل» بتحدٍّ:

- إذن ماذا تكون؟

أجاب في هدوء:

- الطمع!!.. المرأة ذبحت طفلتها قُربانًا للشيطان من أجل استخراج آثارٍ.. المرأة ضحّت بفلذة كَبِدها من أجل المال، وقالت.. إنها كانت ستعوض الطفلة لكن الفرصة لا تُعوض.

- هذا دليلٌ آخر على مرضِها..

- ليس بالضرورة.. لقد خضعت المرأة للكشف الطبي، وأثبت أنها في كامل قواها العقلية، وبناء على ذلك فهي لن تُعفَى من العِقاب، القانونُ يلغي العقوبة في حالة واحدةٍ فقط ، أن تكون إرادة المريض مُنعدمة..

- أعلم ذلك، لكن..

قاطعني بهدوء:

- أتفهّم أنك لا تتخيلين بشاعة الحقيقة، لكن هذه القضايا ليست بالضرورة حاسمة وتحتاج الكثير من الجهد والمثابرة، إنها أمور معقّدة من الصعب على العقل تصديقها، حتى أنا أحتار في حلّ بعضها.

إنه مُتعجرفٌ ويجعلني أبدو ساذجة، كان أبي يتابع الحديثَ صامتًا، نظر «باسل» في ساعته وقام قائلًا:

- حقًا حظيت بوقتٍ ممتعٍ بصحبتكَ أستاذ «هاشم»، لكن لا بد أن أذهب للعمل الآن.

صافحه أبي بحرارة وقال:

- لا بُد أن أراك لننهيَ نقاشنا عن بلاغات الاختفاء المفتوحة، وإني أريد حقًا أن أساعدك ولو برأيي..

بدَا على «باسل» الحماس وقال:

- هذا من دواعي شرفي أستاذنا.

إنني قد أفهم زيارة «باسل» لو أنني لم أسرد لأبي ما حدَث، لكن الآن لا أستطيع أن أفسر دعوته له، ماذا سيظن «إياد» بي؟

صافحته «راحيل» وقد بدَت عليها الراحة، وإن كانت تتفحصه طوال الوقت، حياني بإيماءة فأوصلته إلى باب الشقة، ابتسم بودٍّ وقال:

- إن أباكِ رجلٌ رائعٌ..

ثم فتَح الباب ووقف بالخارج ونظر في ساعته سريعًا، فلمحت دبلة في بنصره اليُسرى! متزوج؟! إنه ليس منفصل عن زوجته كما ثرثر الزملاء، على كل حال هذا ليس شأني، أردف هو:

- تصبحين على خير.

لا أعلم لماذا ارتبكت بداخلي لكني أجبته بابتسامة بلهاء، ثم أغلقتُ البابَ وأنا أرى طيفه يختفي خلف الشُراعة الزجاجية، وغمرتني رغبة في معرفة هذا الرجل أكثر ولا أعلم لماذا؟ لكنه ليس إعجاب يُفضي إلى حبٍّ، إنني أراه ككتابٍ أعجبني غلافه وأريد قرائته، لكنني أشعر بالذنب.. إنه شعور متضاربٌ، صِراع، بل عِراك حيٌ في صدري،

شردت للحظات، وقبل أن ألتفت كان صوت همس «راحيل» واضحًا في أذني، وكأنها بجانبي تمامًا تقول بتحذير: «لا تلتفتِي الآنَ فقد حضَرنا»!

فزعتُ والتفتُّ بسرعةٍ أنظر نحو غرفة الصالون؛ فوجدت أبي يتفقد هاتفه المحمول، بينما «راحيل» تُمسك بذميتها اللعينة وتنظر نحوي في حنَقٍ وغضَبٍ!. في هذه اللحظة بدأت الرؤية تتشوش تدريجيًا، ورأيت أبي و«راحيل» مثل الخيال بعيدًا، بدأت أحدّق بهما من مكاني، لكن التشوُّش يزداد، ثم رأيت خيال أبي يقومُ من مكانه ويتجه حيث غرفته وهو يقول:

- تصبحين على خير يا حبيبتي.

حاولت أن أتكلم لكن لساني قد عُقد! اكتفيت بأن أُشير له وأجاهِد من أجلِ أن أبتسمَ حتى لا أُثير انتباهه؛ وفجأةً اتضحت الرؤية مرة واحدة لأرى «راحيل» تقف في الهواء وعيناها أمامي تمامًا! تُمسك برقبتي وتضغط عليها قائلة بنبرة نسائية مُخيفةٍ..

- لا تفعليها مرةً أخرى.. وإلا سيغضب «إياد».

لم أصدّق ما أراه وأسمعه! هل أحلُم؟ كانت قبضة يدها حديدية وكأنها لرجلٍ قويٍّ! بدأتُ أختنِقُ وأنا أنظر إليها في رعبٍ، مددتُ يدي، وقبضتُ على كفّيها الصغيرتين لأفلتهُما، لكني لم أستطع، أوشكت أن أستسلم فأفلتت قبضة يدها، ورأيت نفسي أرتمي على الأرض مُرهقة خائفة، وبينما أسعل بشدةٍ، شعَرتُ بأبي يساعدني على النهوضِ، وبدَا عليه القلق وهو يقول:

- مورين.. ماذا بك؟

عادت الرؤية مشوّشة من جديد، ورأيتُ «راحيل» تجلس في الصالون مبتسمةً، صاح أبي..

- راحيل.. هيا لتُساعد خالتك.

كانت تمشي في براءة وتتصنّع القلق، ولكني كنت أرى الخُبث في نظراتها، كيف خنقتني منذ لحظات بهذه الطريقة؟ وكيف تجلس الآن في الصالون؟ أشعرُ بالغثيان.

***

(٥)

بعد فترةٍ لم أعلم مدتها عادت الرؤية مشوّشة من جديد، وسمعت أبي يقول بصوت خافت:

- هذه أول مرة أرى «مورين» في هذه الحالة! هل تتخيل يا «إياد» أنها كانت تخنُق نفسها؟!

ماذا؟ أخنقُ نفسِي؟! لا إنها «راحيل» يا أب.. كيف لم ترها؟! إن صوتي لا يخرج من حلقي! ماذا حدَث؟ همس «إياد»..

- لا أخفيك سرًّا يا عمّي، لقد صارحتني «مورين» بأحداث غريبة من «راحيل»، الآن أنت تقول: إن «مورين» هي من تأتي بأفعالٍ غريبة! هل كانت تتوهم ذلك من «راحيل»؟ لكن.. لماذا؟

انتابني شعور بالعجز؛ لأنني في شدة الإرهاق، ولا أستطيع الكلام.. ماذا يظنان بي؟ لكن أبي نفسه قد لاحظ غرابة سلوك «راحيل» من قبلُ، فكيف له أن ينسى! حاولتُ أن أفتح عيني فجائني صوت «إياد» قريب مني..

- ألف حمدلله على سلامتك.. ماذا حدث يا حبيبتي؟

بدأ تشوُّش الرؤية ينقشع ببطءٍ، ورأيت «راحيل» تجلس على السرير المقابل، تمسك بهاتفها وتلعب ألعابها المفضلة، نَسِيت أن أجيب «إياد»، وتعلّقت عيني بها، فتقدّم أبي وجلس بجانبي، احتَضنني، وقبّل رأسي ثم قال:

- ماذا بك يا حبيبة قلبي؟ أخبريني.. ماذا حدَث البارحة؟

صارحيني أنا أبوكِ..

أشرتُ لـ«إياد» ليُساعدني فجلست وأردفتُ..

- هل نحن في الصباح؟

قال أبي:

- نعم.. لقد كانت ليلة صعبة، لم نذُق فيها طعمَ النوم أنا «وراحيل».

نظرت إلى «راحيل» في حيرة، فقال «إياد»:

- ما رأيك يا عمّي في قضاء اليوم خارج البيت؟ أنا وأنت و«مورين» و«راحيل»؟

صاحت «راحيل» فرِحة..

- سيكون يومًا رائعًا

أردف أبي:

- لقد وعدتُ صديقي لنجتمع في خَلوة في المسجد بعد صلاة العصر، وها هو الظهر يقترب.

- من الممكن أن تعتذر..

خفَت صوتُ أبي وهو يقول:

- كنت أنتظر هذه الخلوة منذ أسابيع..

استشعر «إياد» رغبة أبي في الذهاب مع صديقه فقال:

- على راحتِك يا عمّي.. هل تأذن لِي أن آخذ «مورين» و«راحيل»

في نُزهة اليوم؟ بعد موت «حماتي» ومنذ أن تركَت «مورين» العمل وتفرغت لعمل الفيديوهات من البيت لا تخرُج من البيت إلا قليلًا، ربما أثّر هذا على نفسيتها وعلى «راحيل» أيضًا..

- أظنها فِكرة جيدة.. ما رأيك يا «مورين»؟

أومأتُ بالقبولِ، وفي هذه اللحظة رأيتُ أبي بوضوحٍ، وقد غمَره القلق، وشعَرت بيده تطبطب على ظهري في حنانٍ، قال «إياد» في مرح مُفتعل:

- عظيم.. مورين.. راحيل.. هيا لنستعد لقضاء يوم أسطوري، لكن سأقلكَ إلى المسجدِ أولًا يا عمّي..

رأيتُ أبي ينظر لهيئة «إياد» سريعًا، أعلم هذه النظرة جيدًا، إنه يخجَل من مظهرِ «إياد» أمام صديقِه، قال أبي..

- لا عليكَ.. إنني أذهب كل مرة إلى المسجد مع صديقي في سيارتِه، اذهبوا أنتم لكن لا تتأخّروا.

ارتدت «راحيل» الفستانَ الأسود؛ هَدِية «إياد» لها، فقد أعجبها للغاية، حتى إنها ترتديه أغلب الوقت، ذهبنا إلى المطعم، ثم السينما، تمشّينا قليلًا، ثم ذهبنا إلى المكتبة لأبتاع كتابًا جديدًا في «علم النفس»، ومرّ اليوم كأيامِ الماضي الطبيعية التي كنت أمتعِض من مَللها، والآن أتمنّى هذا المَلل بلا مفاجآت أو أحداث ليس لها تفسير، كنت أتابع «راحيل».. ورأيتها طبيعية كما سابق عهدها حتى إنني كدتُ أنسَى كل ما فعلته، وما حدَث.

عندما عدنا إلى البيت، كان أبي يجلس مع «باسل» في الصالون

يلعبان الشطرنج، لماذا دعوته يا أبي؟ كان يرتدي هذه المرة بذلة رماديةً، وقميصًا أبيضَ، أضفَت عليه مزيدًا من الهَيبة والوقار، صافحته بترحاب، وللغرابة هرعت إليه «راحيل» تُصافحه بحرارة مثلما تفعل مع «إياد»! سدّد نحوه «إياد» نظرة كالأسهُم النارية، لكنه سيطَر عليها عندما صافحه بخفةٍ زائفةٍ، ثم قال وهو ينتقل بعينيه بيني وبين أبي..

- كان يومًا رائعًا يا عمّي، وما كان ينقصنا شيء غير وجودك، ألَم تذهب للمسجد مع صديقك؟

أردف أبي وقد بدَا شاردًا في تحريك الشّطرنج..

- بالطبع ذهبت، لكني هاتفت «باسل»؛ لأن عمله في المقطّم أيضًا فأقلّني إلى البيت.

نظر «باسل» إلى «إياد» وقد فَهم ما وراء كلماته..

- وكما ترَى كان لي شرف الاستضافة واللعب أيضًا.

جلسَت «راحيل» بجانب أبي تهمِس في أذنه كيف يحرك اللعبة ليهزم «باسل»، لكن «باسل» شرعان ما نظر في ساعته ولمحت بِنصره خالٍ من الدّبلة هذه المرة! لا بد أنه يعاني اضطرابًا عاطفيًا. كعادتِه وقَف بسرعةٍ وصافح جدّي قائلًا:

- قضيتُ أمسية ممتعة، لكن لا بد أن أستعد ليوم شاقٍّ غدًا.

قال أبي بحماس:

- شارك معي تطورات قضايا الاختفاء يا «باسل».

ابتسم «باسل» بودٍّ استشعرتُه وقال:

- قد فعلت اليوم واستفدت برأيك كثيرًا، وسأفعل فيما هو قادم من تطورات، إن بلاغات الاختفاء تتزايد بشكلٍ مُرعب!

قال «إياد» بسخرية مستترة:

- كان الله في العون.

بعد أن غادر «باسل» قال «إياد» وقد بدَا عليه الغضب:

- تصبحون على خيرٍ..

أردف أبي:

- اجلس يا رجل لتلاعبني الدور القادم.

حاول «إياد» التغلُّب على مشاعره فقال:

- تعلم مِيعاد البرنامج الصباحي، يجب أن أستيقظ في الخامسة صباحًا، لكن في المرة القادمة يا عمّي أعدك أنني سأتغلّب عليكَ.

بعد أن غادر «إياد» كانت الأجواء هادئة، وذهبت «راحيل» لتنام، اختليت بأبي في البلكون، ورأينا «باسل» و«إياد» يتصافحان أمام العمارة، ثم استقل «إياد» سيارته وهو يتابعني بنظراته، وسار «باسل» نحو بيته.. قال أبي:

- إن «باسل» رجلٌ ذكيٌ، مجتهدٌ في عمله ويمتلك عقلًا داهية، يعمل بكدٍّ، لقد حكى لي أنه يواجه مشاكل أسرية قد تجعله ينفصل عن زوجته؛ لذلك يقيم في بيت جدّته بشكلٍ مؤقت، لقد نصحته بإخلاص، ولكني أتوقع أن ينتهي الخلاف ويعود لبيته في القريب؛

لأنه يحبّ زوجته بشدة.

ساد الصمت بيننا، وعلمت مقصد أبي، فأكمل وكأنه ينبهني:

- لذلك يا «مورين» أريدك أن تكوني حذِرة في تعاملك معه، أنت تفهمين مقصدي، إن الرجلَ متزوجٌ، وأنت مخطوبة.

علت دقات قلبي حتى إنني خُيل إليّ أن أبي يسمَعها، وشعرت باضطراب شديد ولم أُجِبه، إن أبي يضغط على وترٍ لا أريد أن أقترب منه، ليس من أجل «باسل»، فأنا أعلم أن «باسل» مجرد إنذار لعقلِي ولقلبي أيضًا، أعلم أن مقارنةَ «إياد» برجال آخرين معناه أنني في علاقة خاطئة لا بد أن تنتهِي، لكن كيف؟ ومتى؟ ولماذا؟

هجَع شارعنا الصغير تحت سماء صافية وجوٍّ هادئ، خلّا من المارّة إلّا القليل؛ بعد أن أغلقت السفارة أبوابها، فقال أبي:

- هل أمضيتِ وقتًا سعيدًا اليوم؟

أجبته باقتضابٍ:

- الحمد لله.

التفت وقال..

- اسمَعي يا ابنتي، يُفترض أن تكون هذه أسعد أيامك، فإذا لم تشعُري بالشغَف واللهفة، وهذه المشاعر المتأججة التي تدفعك دفعًا نحو الزواج وتقبل عيوب شريك الحياة، فأنت في ورطةٍ، وأنا أحذرك ألّا تقعي فيها، إذا ترددتِ في إكمال العلاقة.. فالتردد يُحسم إنهاءها، أنا لا أدفعك لفسخ خطبتك من «إياد»، لكني أخاف عليكِ من

حياة بائسةٍ أو طلاق مبكرٍ.

اضطربت أنفاسي حينها لأنه يراني من الداخل فأكملَ:

- أريدك أن تُقيِّمي علاقتكما من جديد، هل هذا رجل يملأ عقلك وعينك وقلبك حقًّا؟ بعيدًا عن حبّه لكِ؛ لأن هذا الحب بصورته الحالية لن يدومَ، سيتغير شكله وأسلوب التعبير عنه، لذلك أُريدك أن تعِي ما أقول جيدًا.

أومأتُ بالموافقة وكلُّ منّا يعلمُ ما لم يتم الإفصاح عنه، إن الأمرَ لا يتعلّق بـ«باسل»، إن الأمر يتعلق بعدم اقتناعي التام بـ«إياد» كرجلٍ، لقد بات هذا جليًا، وأسرعت إلى غُرفتي لأكسر مزيدًا من الأقلام لأهدأ، وتسارعت كلمات أمي أمامي كأن هناك من يعرضها على شاشة.. هل تسرّعت في خطبتي من «إياد»؟

***

(٦)

مرت الأيام و«راحيل» تبدو طبيعية، تذهب لبيت أبيها أيام قليلة وتعود إلينا من جديد، وقد نَسيت أو تناست ما حدَث منها في السابق من أمور عجيبة، أما علاقة أبي بـ«باسل» فهي في تقدم مستمر، وقد أصبحت قوية حتى شعَرت أنه ابنه الذي لم ينجِبه؛ يشاركه أبي رأيه في بعض القضايا التي يعمل على حلّها، لا يفوتهما لعب الشطرنج ولو مرة في الأسبوع، فأصبح أبي بين دروس الفقه والتفسير في المسجد وبين جلساته مع «باسل»، الذي ساعده على ذلك جيرته لنا والتي لا أعلم إلى متَى ستستمر، إن «باسل» يخلق الوقتَ من أجل أبي، وأنا أتجنّب لقاءه ومصافحته والنظر إليه، والرد على مكالماته القليلة حتى لا أقارنه بـ«إياد» وأشعر بالذنب، وفي نفس الوقت علاقتي بـ«إياد» تفتر يومًا بعد يومٍ، لم يعد «إياد» الشغوف المُحب ولم أعد أرى فيه ما يدعوني للاستمرار لا بمنطق العقل ولا بمنطق القلب.

لقد تحدّثت معه بصراحةٍ بشأنِ مظهره وبتخطّيه الحدود اللائقة، لكنه غضِب وأشار أن تعارفنا منذ البداية كان بنفس المظهر، وصرّحتُ بأنني لم أعد أطيق مشاهدة ما يفعله من فيديوهات مُسفة وتلميحات خارجة، ومنذ ذلك الحين، وهو يعاملني باستعلاء! لقد كانت أمي على حق! حتى إن «همسة» لاحظت أسلوبه في إحدى المرات، وسألتني هل سننفصل؟ لكنني لم أجبها؛ لأنني لمَحت لمعة تُضئ في عينيها.

ومع كل هذا ظلت علاقة «إياد» بأبي جيدة، وعلاقته بـ«راحيل»

أقوى من علاقتِنا؛ فهو يُحضر لها الكثير من الهدايا وهي تُهاتفه كثيرًا، أحيانًا أشك أنها تنقل له أخباري، أظنه يتمهل في قرار الانفصال، ويعطي علاقتنا فرصةً أخرى دون تصريح، لكني أخذت على نفسي أنني بثّ نسخة ثانيةً من أمي؛ أسيرُ على نهجها بشكلٍ لافِتٍ، حتى إنني بثّ أميل أكثر إلى كل ما هو تقليدي في الذوقِ، في الفترة السابقة لاحظ أبي كل ذلك، وتحدّث معي بصراحة، وقال إنه يرَى عدم اهتمام ولا مبالاةٍ.. وأنا أبتاع مستلزمات الزواج، فلَم أعد مُتحمسة له، يقول أبي: إن هذا بؤس صريحٌ، وإنني لا بد أن أُنهي هذه العَلاقة قريبًا من أجل صحتي النفسية ومستقبلي، ومن أجل أمانتي مع «إياد» قبل كل شيء، وعدته بذلك وأنا أعلم صحة ما يقول، لكن الجزء الجبان في شخصيتي والخوف من الانفصال يُجبراني على تأجيل مواجهة الانفصال لأسبابٍ لا أعلمها، ربما كانت العِشرة والخوف من الندم، وأيضًا عدم ضمان المُستقبل.

في الصباح وكعادته أيقظَني أبي من النوم بعد أن أعد الفطور..

- مورين.. كفاكِ كسل.. الفطور جاهز.

على مائدة الإفطار جلس مع «راحيل» التي بدَت مريضة قليلًا ونظراتها زائغَة، قال أبي..

- سأصلّي الظهر مع صديقي في المسجد، وربما نتمشّى في وسط البلد ونتناول الغداء معًا، سأتأخر قليلًا..

- على راحتك يا أبي.

بسرعة قالت «راحيل» وهي تسعل..

- هل ستأتي لتأخذني من بيت أمّي في المساء؟

لاحظت أن «راحيل» لا تذكر اسم أبيها منذ فترةٍ، وعندما تفعل ذلك أعلم أنها رأت مشاجرة بين أبويها، مسح أبي على رأسِها وأردف حانيًا:

- بالطبع سأفعل.. لكن على شرط أن تأخذي الدواء وتستريحي، هل تظنين أنني سأتركِكِ عند «سما»؟

بعد قليلٍ غادر أبي مع «راحيل» ورفض كعادته أن أقله بسيارتي؛ لأنه يريد أن يكون حرًّا! بعد أن أنهيت أعمال البيت خرجت لأنشغل اليوم كله بين مشاوير وأفكار مُؤجّلة، وقد سيطرت فِكرة انفصالي عن «إياد» كفِكرةٍ صائبة، وكأنها استجابة لدعواتِ أمي المُستمرة.

في المساء، وعند عودتي للبيت لاحظت أن سيارة «باسل» تصطف أمامي مباشرة، شيء بداخِلي تمنّى لو أنه بزُفقة أبي عندنا، لكني نهَرت نفسي فورًا.

كيف لي أن أفكّر بهذه الطريقة، وكيف أشعر أنني أودّ لو أرى شخصًا آخرَ غير «إياد»! هل يكون هذا دليلًا على عدم صِحة علاقتنا؟!

عند باب العمارة لم أجد حارسها كالعادة، صعِدت وأغلقت باب الشقة، كان الهدوء يخيم عليها، هذا طبيعي؛ فقد تأخّرت عن ميعادي المعتاد، لا بد أن أبي قد خلد للنوم، ذهبت إلى غُرفته وقرَعت الباب ثم فتحته فتحة صغيرة فاجأني صوت «راحيل» خافتًا وسط الظلام..

- أخفضِي صوتك، لقد نامَ جدّى..

لقد نفّذ أبي وعدَه وأحضر «راحيل»، من الواضح أنه لن يتركَها حتى تكبر وتتزوجَ، قلتُ بصوتٍ خافت وأنا أُغلق باب الغرفة بسرعة:

- حسنًا حسنًا، تُصبحين على خير.

قضيت ليلتي في التفكير، وذهبت إلى البلكون أملًا في لحظات هادئة، ليظهر «باسل» بملابس رياضية عند سيارته يأخُذ حقيبة صغيرة، نظر فجأةً إلى البلكون وابتسم ثم أغلق السيارة وهاتفنِي فأجبته على الفور:

- أهلًا باسل..

- كيف حالك؟

- بخير، الحمد لله.

- كيف حال عمّي؟ لم أرَه كثيرًا هذا الأسبوع، أريد مشورتَه في قضايا الاختفاء التي لا تنتهِي.

- إنه نائمٌ الآنَ، تستطيعُ أن تمر عليه في أي وقت، غدًا الجمعة، وليس لديه أية خُطط.

- ممتازٌ.. غدًا أرى عمّي في المساء.

وهنا ظهر حارس العمارة من حيث لا أدري، ونظر إلينا في اهتمامٍ، ابتسمتُ باقتضابٍ، فقال «باسل» وهو يتّجه نحو عمارته:

- تصبحين على خير.

للمرة الثانية لم أرُد إلا بابتسامةٍ وأنا أُتابعه في صمتٍ، متَى يعود لبيته هذا الباسل الغامض ولا يصبح جارنا فأراه في الصباح والمساء؟ لقد تقطّعت الأوصال بيني وبين «إياد» بسببِ المقارانات في عقلي، رحِمَكِ الله يا أمي.

مرت الليلة بين نوم متقطّع تخلله كوابيس كثيرة، نومٌ جعل مخّي عديم المنفعة، ووَدِدتُ لو أن «إياد» كان يملأ عيني وعقلِي وقلبِي معلّما يقولُ أبي، ظلِلتُ أفكر حتى سمِعت آذان الفجر، وقُمت للصلاة، دعوتُ اللهَ كثيرًا أن يُرشدني إلى الطريق الصحيح، وقبل أن أخلُد للنومِ سمِعت حركة خارج الغرفة، لا بد أن أبي يُصلي الفجر، سأراه في الصباح؛ لأنني مُرهقة ولا أستطيع السهر أكثَر من ذلك، وأخيرًا زُحتُ في ثبات عميقٍ.

لكن بعد قليل شعَرتُ بيدِ أبي تمسَح على رأسي ويهمِس:

- مورين..

إنه يتفقّدني قبل أن يوقِظني كعادتِه، لكني لم أستطع فتح عينِي من شِدة الإرهاق، فعدلت نفسي لأنام على جانبي الأيسر فطَبطبَ أبي على كَتفِي في حنوٍّ وخرَج من الغرفة.

عندما استيقظت في الصباح كنتُ مُتعبة جرّاء قِلة النوم، أردت أن أنام ثانية لكن الساعة البيولوجية اللعينة أبقتنِي مُستيقظة.. بعد الروتين الصباحي، والصلاة، وعلى مذهب أمي ذهبت للمطبخ من أجل تحضير الفطور، وبعد أنِ انتهيتُ ذهَبت لايقاظ أبي، تعجبتُ من عدم وجوده؛ لأنه دائمًا يستيقظ قبلِي ويُحضر الفطور لنا، أثناء ذهابي لغرفة نومه سمعت «راحيل» تبكي بصوتٍ خافِت! تتبّعت

الصوت فوجدتها في غرفة الصالون وحدها تجلِس القُرفصاء على الأرض! ترتدي فستانها الأسود الكئيب، وتُخفي وجهها بين كفّيها وتبكِي! كلّما أردتُ أن آخذ هذا القُستان لأتبرّع به أنسَى تمامًا، اقتربتُ منها فتوقّفت عن البكاء ومسَحت دموعها، انتابني القلقُ وقلت:

- راحيل.. لماذا تبكين؟

وقبل أن أحتَضِنها التفَتت إليّ، وكانت عيناها حمراء من أثر البكاء وقالت:

- أريد أن أذهَب لأمي..

هذه أول مرة تبكي «راحيل» لتذهب لأمّها، ما يحدُث دائمًا هو العكس حتى إن «إيهاب» لا يُعجبه هذا الأمر، سألتها:

- هل ضايقكِ جدّك في شيءٍ؟ أم أنّ الأمرَ بيننا؟

قالت وقد تغيّرت ملامحها ونَبرة صوتها:

- اذهَبي وتفقّدي جدّي الآنَ.

كان هذا مُقبِضًا إلى حدٍّ كبيرٍ؛ لأنني تذكّرت أمي، تركتُها دون أسئلةٍ.. وبتُّ أفكّر أن أبي قد أصابه مكروه، هرعتُ إلى غرفته وقرَعت الباب، وانتظرتُ قليلًا فلم يُجِبني، قرَعت البابَ مرة ثانية، لكن يبدو أنه لم يستيقظ بعدُ، بصوتٍ عالٍ صِحتُ:

- بابا.. هل أنتَ بخير؟

صوتُ الهدوء كان أقوَى، ففتحت البابَ، وكان الظلامُ دامسًا، أضأتُ

نور الغرفة لأرى مشهدًا عجيبًا، الغُرفة خالية والفِراش لم يمسَسْه أحد! أين ذهب؟ ذهبت إلى الصالون لأسأل «راحيل» عنه فلم أجِدها، بحثت عنها في الشقة كلها فلم أجدها لا هي ولا أبي!! هاتَفت حارس العمارة فربما رآها تخرُج؟ لكن كيف؟ ومتى؟ كل ما مر دقائق ولا بد أنني كنتُ سأشعُر بكلِّ شيءٍ! هل يجوز أنني كنتُ أحلُم بـ«راحيل»؟ هل كانت تهيؤات معًا؟ لا بُد أن أبحثَ عنهما معًا، ورغمًا عن عقلي سأحاول نِسيان مشهد بكاء «راحيل» وطلبها تفقُّد أبي!!

إنها العاشرة صباحًا الآن، وقد استيقظتُ قبل ساعتين، هل من المعقول أن يخرجا قبل ذلك؟ أحضرتُ هاتِفي واتصلت بأبي وبعد ثوانٍ سمعت: «هذا الهاتف ربما يكون مغلقًا»!

انتابني توتُّر شديد وأنا أعيد الاتصال بعد ثوانٍ وأسمع نفس الرسالة، اتصلت بهاتف «راحيل» فإذا بي أسمعه يرن مِن غُرفة أبي، لقد نَسيته «راحيل» إذن، اتَّصَلتُ بـ«إياد» وأنا أعلم أن اليوم إجازته وينام إلى وقت العصر، وبالفِعل كان هاتفه مغلقًا أيضًا؛ فتركت له رِسالة، اتصلت بـ«سما» لأروي لها ما حدَث، فقالت بتعجُّبٍ:

- مورين.. ماذا تقولين؟

أردفتُ بعصبية..

- أبي و«راحيل» خرجا منذ الصباح الباكر وهاتفه مغلق، وهاتف «راحيل» هنا.

سادَ الصمت لثوانٍ قبل أن تُلقِي قُنبلة لم أفهمها:

- نعم لقد نسيت «راحيل» هاتفها عندك، أعلم ذلك، لكن من غير

المعقول أن تخرج «راحيل» مع أبي في الصباح الباكر وهي نائمة عندِي مُنذ البارحةَ!

توقَّف عقلِي عن التفكير وتسمّرتْ في مكانِي وقد خفَت صوتِي..

- كيف؟ لقد تحدّثت مع «راحيل» هنا منذ قليل!!

- وأين هي الآن؟

- لا أعلم.. لقدِ اختَفت، لكنها كانت مع أبي في المساء في غُرفته، وتحدّثنا وقالت إن أبي نائم، وعندَما استيقظتْ لم أجِدهما.. ثم إن..

قاطَعتني بتوترٍ..

- مورين.. إن أبي قد أوصَل «راحيل» عندي البارحة قبل الظُّهر، ولم يأتِ مرة أخرى ليأخُذها، لم أشأ أن أُرهقه مرة ثانية خاصة أن «راحيل» ارتفعت حرارتها وأردتها أن..

قاطَعتها وأنا أصرُخ..

- سما.. هذا مُستحيلٌ.. إذن أين هما الآنَ؟

صرَخت سما..

- أنتِ لا تفهمين.. «راحيل» معي، أين أبي؟

صِحتُ..

- هل تعنين أنّني قضيت الليلة في البيت وَحدِي؟ تذكّرت.. وَقْتَ الفجر.. لقد حاولَ أن يوقِظني وقت الفجر!

- إذن لقد خرَج بعد الفجر!

دون أن أشعُر، أغلَقت الهاتف وأنا أروح جِيئةً وذهابًا في البيت كالمجنونة؛ صوت تطبيق «الواتس آب» يحمل رسالةً من «سما» تقول إنّها في الطريق مع زوجِها و«راحيل»، فتحت قائمة المكالمات كلّها لا يوجد بها رقم أبي البارحة، هل هذا يُعقل؟ كيف لم نتصِلْ ببعضنا البعض ليومٍ كاملٍ؟ لكنّها الحقيقة، رأيت ضِمن المكالمات «باسل غنيم»، لم أتردد في الاتصال به، وإخباره بغيابِ أبي، جاءني صوتُه يغلُب عليه النوم فقُلت بشرعة وتوترٍ..

- «باسل».. إن أبي ليس في البيت، ولا أعرِف أينَ هو؟

- ماذا؟ ألم يكن نائمًا في الليل؟ متى خرَج؟

لم أتغلّب على دموعي وبكيتُ قائلة:

- ظننتُه كذلك، لعله خرَج بعد الفجر لكن هاتفه مغلق.

كان واضحًا أنه لم يبدأ يومَه بعدُ؛ فقال مُحاولًا تهدئتي:

- مورين.. إهدئي، وإحكِ ماذا حدَث بالضبط؟

في غضونِ نصف ساعة كان «باسل» قد أحضَر حارس العمارة الذي قال إنه لم يرَ أبي منذ صباح البارحة.. عندما خرَج مع راحيل، ثم جاءت «سما» و«راحيل»، ولاحظت أن «راحيل» ترتدي نفسَ الفستان الأسود الذي رأيتُها به صباحًا! قالت «سما» في حرَج إنّ زوجَها سيأتي بعد صلاة الجمعة! ماذا؟! هل هذا ظرف يتركنا فيه بمفردِنا؟

سردت لـ«باسل» ما حدَث بالتفاصيل، توقّف عند «راحيل» وأبدَى رأيًا عابرًا أنني ربما اختَلَط عليّ الواقع بالحُلم، سألني متى آخر مرة

تحدّثت مع أبي؟ فأعلَمته أننا لم نتحدّث في الهاتف لأوّل مرة ليومٍ كاملٍ؛ فقال:

- هل اتصلتِ بصديقه المقرّب «عبد الحكيم»؟

أومأتْ بالنفي؛ فقالت «راحيل» على الفورِ..

- لم يكُن معَه..

نظَرت إلى «راحيل» التي أتمنّى أن أعلم لماذا أتخيّل أشياء معها.. وملأتِ الحيرة رأسي، اقترب منها «باسل» وقال:

- كيف علمتِ؟

قالت بعفويةٍ:

- لأنه تحدّث إلى رجلٍ آخرَ ونحنُ في الطريق إلى أمي ولم يقُل يا «حكيم» كما يُلقبه.

قال «باسل»:

- حسنًا.. ماذا قال له؟ هل تعلمين اسمه؟

شردت «راحيل» للحظات ثم قالت:

- لا أعلم، لكنّه قال له إنه سيُقل حفيدته إلى ابنته ثُم يلقَاه.

- أين؟

- لم يقُل.

عندها هاتف «باسلّ» «عبدَ الحكيم» صديق أبي، قال إنه لم يرَ أبي منذ أسبوعٍ على الأقلّ، وأنه لم يعُد يراه بانتظامٍ في الأشهر القليلة

الماضية؛ لانشغال أبي بدروس الدّين في المساجد مع أصدقاء جُدد لا يعرفهم، لكنه هاتَفه البارحة مرّتين، مرة في الصباح ليتّفق معه على ميعادهما الأسبوعي، ثم مرّتين في المساء.. لكن يبدو أنه كان نائمًا ولم يُجِبْه، حكى له «باسل» موقفنا وأنه سيطمئنه متى ظهَر أبي في أي وقت، نظر «باسل» في ساعته وقال:

- الساعة الآن الثانية عشرة ظُهرًا، لو أن عمّي لم يظهر الآن فبذلك يكون قد مرّ يومٌ كاملٌ تقريبًا على غيابه، وإذا كان قد عاد وخرج بعد الفجر فما زال هاتفه مغلقًا، أرى أن نكسب وقتًا ولْنُحرِّر محضرَ تغَيُّبٍ الآن، لا تقلَقوا.. سنَجِده إن شاء الله.

كان لكلماتِه وَقْعٌ صعبٌ، وكأننا على وَشْكِ الدخول في مغارة مُظلمة لا نرى فيها الطريقَ، كنت و«سما» و«راحيل» لا نملِك من أنفسنا شيئًا، فوَثِقتُ في «باسل»؛ لأنه سيتولّى الأمرَ، ذهَبنا معه إلى قِسم قصر النيل، وحظينا باهتمام كبيرٍ من أجل خاطر زميلهم، أخَذ الضابط أقوالنا كاملةً، ووعدنا بأن يفعلَ كل ما بوسعه، لم أتذكّر أوصاف ملابسه قدر «راحيل» التي جاء وصفها دقيقًا للغاية.

في طريق عودتنا للبيت كان الصمتُ سيد الموقف، فات وقت العصر وإلى الآن لم يتصل «إياد» أو «إيهاب»! لقد كُنتِ على حقٍّ في رأيك عن عدم تحملهم للمسئولية يا أمّي! إن المواقف الصعبة تقول كل شيءٍ.

حلّ المساء عندما وصلنا البيت، ولم يكن لمجيء «إياد» و«إيهاب» معنًى، لاحظت أنني قد تركت الطعام كما هو على المائدةِ منذ الصباح؛ فاعتَصر الألمُ قلبي، ورفَضت «راحيل» أن تأكُلَ حتى يعود

أبي، ولم يكن كذلك لغيرة «إياد» قِيمة عندِي عندما رأى «باسل» معنَا؛ لأنه قد قرَأ رسالتِي منذ ثلاث ساعات ولم يتحرّك؛ ذلك لأنني أعلم أنه لا يبدأ يومه مهما حدَث قبل أن يشرَب قهوته ويُدخن سيجاره! بعد أن سردت «سما» ما حدَث كله لزوجها أبدى تعاطفًا باردًا، ثم جلَس يُطالع تطبيقات التواصل الاجتماعى، ولاحظت أنه يكتُم الضّحك على منشورٍ يقرؤه فزَجرته «سما»، وبقى «إياد» في مكانه يسألُ أسئلةً قديمة سألها «باسل» صباحًا فلم أهتم فأجابته «سما»، استأذن «باسل» ليذهب إلى عملِه وقال إنه سيتواصل معنا لمُتابعة الأخبار.

جلَسنا جميعًا في غرفة المعيشة والصمتُ يتحدّث وشعَرت بالوحدة، انتابني شعورٌ بأنني أعيش كابوسًا سأستيقظ منه على صوتِ أبي عمّا قريبٍ، لا أُصدّق أنّني أبحث عن أبي! إنّه شعورٌ مميتٌ ألّا أعلم مصير أقرب الناس إليّ، هل أستطيع أن أفعل أي شيء غير التفكيرِ الآنَ؟ وتذكّرت أنه قد تأخّر ذات مرةٍ في أحد المساجد وكان هاتفه مغلقًا، وبقِيت أترقب دخوله علينا كل لحظة.

بعد وقت لم أعلَمه غفَت «راحيل» بجانب «سما» على الكنبة، حمِدتُ الله أنّ «إياد» استأذن.. غادَر من أجل برنامجه الصباحي، ونام «إيهاب» على الكنبة المُقابلة لزوجته وابنته، دخَلت البلكون وكان وقت الفجر، لم يكن بداخلي ذرّة خوفٍ أو ندمٍ أن أفسخَ خطبتي من «إياد»، سيفرَح أبي كثيرًا عندما يعوذ، ولا شك أن أمي ستشعرُ بذلك وتفرَح أيضًا.

إن احتياجي لأبي وأمي كان كبيرًا في هذه الليلة، تعطّرتُ بعِطر

أمي الذي لا أستخدمه أبدًا حِفاظًا عليه، ثم دخَلت لغُرفة أبي ونِمتُ مكانَه في السرير، شعَرت بالأمان، وأنا أشتَم رائحته في الفِراش، فغَفوتُ وقتًا لم أعلَمه، حينما استيقظت كان منبه الهاتف يرن بعيدًا عنّي بلا انقطاعٍ، تتبعت الصوت فكان في غُرفة المعيشة، نحن في وقت الظهيرة، تفقّدت «راحيل»، و«سما»، و«إيهاب» فوجدتهم يَغِطون في نومٍ عميقٍ، اتجهت للمطبخ لأصنع كوبًا من القهوة يُبقي عقلي واعيًا ليستوعبَ هذا الموقف الذي لم أتخيلْهُ في يومٍ من الأيام.

لا زلتُ أشعر أنني بداخِل حُلم سخيفٍ، أخَذت قهوتي وأثناء ذهابي للبلكون لاحظتُ أن «راحيل» لم تكن نائمة، لا بُد أنها استيقظت وتغتسل الآن في الحمّام، قرّرت أن أشرب قهوتي أولًا ثم أُحضّر لها فطورها، كان الشارع هادئًا كالعادة، لكن البلكون كئيبٌ بدون أبي، نظَرت إلى مِقعده فسالت دموعِي رغمًا عني، بعدَ رشفتين من القهوة شعَرت أنني لا أتحمّل أي شيء في جوفي، سأذهبُ لأعدّ الطعام لـ«راحيل»، يجبُ أن تأكلَ هذه المِسكينة التي تشترط عودة جدّها لتأكلَ.

وضَعت كوبَ القهوة في المطبخ وسمِعت صوتَ صنبورِ المِياه في الحمّام قويًا، ذهَبت لأتفقد «راحيل» وطرقت الباب لكنها لم تجِبني، سمِعت صوت المياه شديدًا، خِفتُ أن يكون قد أصابها مكروهٌ، بعد طَرقة أخرى بلا جوابٍ فتَحت البابَ، فوجَدت الصنبور مفتوحًا لكن الإضاءة مُغلقة، والحمّام شاغرًا! لا بد أنها خرَجت سريعًا، في طريقي إلى غرفة المعيشة سمِعت صوتًا يصدُر من غُرفة أبي!

بخطواتٍ بطيئة نحوَ الغرفة سمِعت صوتًا جعَلني أتسمّر في مكانِي! هذا الصوت لا بد أن «راحيل» تستمِعُ له في أحد الفيديوهات التي كانت تجمعها مع أمي على هاتفها، ما كل هذا الألَم الذي يُحيط بي؟ فقَدت أمي فجأةً، وها هو أبي يختفِي فجأةً!

بعدَ عدّة خُطوات أخرى تهيأت فيها لرؤية «راحيل» تُشاهد الفيديوهات، وقفت أمام باب الغرفة الموارب وفتحته بهدوء، فكان أن رأيتُ ما لا لم تُصدقهُ عيني ولا عقلي، فُغِر فاهِي وجحظت عيناي أمامَ هَوْل ما رأيتُ.

إن أمّي تقِفُ عند إحدَى زوايا الغُرفة وتُمسك بيد «راحيل» وتُعنفها وهما ينظران نحو الحائط، بدَت أمي غاضبة بشدة، وقد بدأت في تنظيف الحائط من رسمةٍ عليه، يا إلهي.. يبدو أنها نفس الرسمة التي تُطاردني! لم أتأكّد بعد لأن أمي تُغطيها، وهي غاضبة، تمامًا كما كانت تغضَب في حياتِها، هل هذه روح أمي؟ لكن كيف؟ سمِعت الناسَ يقولون إن الروحَ تبقَى في مكانِها المفضّل، هذا ليس جائزًا؛ لأن الروحَ من أمر ربّي، إذن كيف أُفسر ما أرَى؟ ثم أخَذت تلوّح بسبابتِها وكأنها تتحدّث مع أحدٍ وتُنذِره بصوتٍ عالٍ..

- اتْرُك حفيدتِي وشأنَها؛ لأنني لن أدَعكَ تلهُو بها.. هل فهمتَ؟

صِحتُ بتلقائيةٍ..

- أمّي!

تلَفّتت إلى الوراء ببطء ولا زالت تُمسك بيد «راحيل»، بعد لحظات خارج الواقع نظَرت لي بشفقةٍ وتلاشَت تدريجيًا، لم أتبيّن شيئًا غير

نظرات الحُزن العميق في عيونِها، في حين نظَرت لي «راحيل» بلومٍ عجيبٍ! شعَرت بالغثيان وتقيّأتُ دفعةً واحدةً وقد غمرتِ الدموعُ عيني ووجهي، نظرت «راحيل» إلى تلاشِي أمّي بشكلٍ عاديٍّ جعلَني أندهشُ ثم سارت ببطء نحوِي لا مُبالية بما حدَث لِي، لقد دَهَست القَئ على الأرض وخرَجت ببساطةٍ!

مررتُ بحالةٍ لم أتعرّض لها من قبلُ؛ حالة بين الواقِع والخيالِ، خرجتُ وراء «راحيل» لأفهمَ منها ماذا يحدُث، وعندما وصلتُ لغرفةِ المعيشة كانت «راحيل» تَغط في نومٍ عميق بين والديها! وقَفت أنظُر إليها لدقائقَ، تتخبّط الأفكار في رأسي وكأنها بالون يتطاير في الهواء بلا وِجهةٍ.

إنّ رأسِي يكادُ ينفجِرُ.. هل ما أراه يعنِي أنّني على حافة الجنونِ؟

***

(٧)

في الصباح وبعد أن استيقظوا، غادر «إيهاب» إلى العملِ، على وَعدٍ بأن نُعلمه بالمُستجدات! لن أتعجّب من رُدود الأفعال، من الواضح أن أمّي قد ثبتت نظريتها، لكني كنتُ في حيرة كبيرة من أمرِ «راحيل» ومما رأيتُه، وقد عادت لِي ذكريات الأحداث التي لم أستطِعْ تفسيرها منذ فترةٍ معها، وبدأت أشُكُّ في صِحة قواي العقلية، واخترت ألّا أتحدّث لأن الظّرف أكبر من الأوهام التي تُلاحقني.

كان الإعياء قد تمكّن من «راحيل» فأرغمناها على تناول وَجبةٍ خفيفةٍ، بينما لم أستطع و«سما» تناول أيٍّ من الوَجبات طوال النهار، ومضّت الساعات بطيئةً تأكُل من عقولنا، بينَ كثيرٍ من المخاوف والتكهُّنات والآمالِ، وبين اتصالِي بـ«باسل» الذي لم ينقطِع، ومحاولات طمئنته لِي بهدوءٍ بأن البحثَ جارٍ عنه، وأنّه يُتابِع مع زُملائِه ساعة بساعةٍ، وأن غيابَ أبي يحتملُ كثيرًا من السيناريوهات، لكن علينا أن نتفاءل، وأن أبقى هادئة إلى أن ينتج البحث عن معلومة، تتعجّب «سما» بأن «إيهاب» زوجها لم يتّصِل بها إلّا مرة واحدة! فلا أتعجب؛ لأن خطيبي لم يتصل ولا مرة، إنه يكتفي بإرسال الكثير من الرسائل التي تحتوي على سؤال واحد «هل من جديد عندك؟»، وهذا بحُجة انشغالِه بالبرنامج، وهذا الأسلوب يؤكّد لِي أن شعورَنا بالفتورِ ونيتنا للانفصال أصبح شيئًا مُتبادلًا وفقط مسألة وقتٍ، وأنّ هذا السؤال الذي يُرسله كل ساعتين أو أكثر فقط من أجل حِفظ ماءِ الوَجه، وكل هذا يجعلني أرتاح بداخِلي بخصوصِ أمرِه، ويبقى اختفاء أبي يسيطر على الدنيا وعلى مخّي وقلبِي.

ذهَبت «سما» لتصلّي المغربَ وعادت «راحيل» تنظُر لِي نظرات غير مفهومةٍ، ثم اقتربت منّي وهمَست في أُذني..

- إنه يلهُو مع «همسة» الآنَ في الإستوديو..

ابتعدتُ عنها فزِعةً ومُندهشةً في نفس الوقت، في حين بقيت هي هادئة وعيناها تنظران في عيني مباشرة، وقالت وهي تضع أصابعها على أُذنها وتنظُر إلى الحائط..

- إنني أسمَعهما الآنَ جيدًا..

أردفتُ وأنا أتلعثمُ:

- لا أفهَم ما تقولين!

أغلَقت عينيها ثم فتحتهما ونظرت إلى هاتفي فوق منضدة السفرة وقالَت..

- إنه «باسل»..

نظَرتُ إليها، وكأنّني أرَى رجلًا يقف داخل حدَقة عينيها! هذا جعَلَني أحدّق بها أكثر ونظراتها تزدادُ حدّة وغضبًا، وفجأةً رنّ هاتفي وكان المُتصل «باسل غنيم»! فزِعتُ واستغرقتُ لحظات قبل أن أُجيبه كالتائهةِ..

- باسل..

صمت للحظات وقال بنبرة خافتةٍ..

- مورين..

قاطعته:

- هل ظهر أبي؟

صمَت للحظات أخرى قبل أن يأتيني صوته مُختنقًا:

- جاءنا بلاغٌ عن جثة لمُسنٍّ مقتول أسفل سفح جبل المقطم، وقد تبيّن بعد معاينة مسرح الجريمة أنها..

أردف بنبرة مُرتعشة..

- أنها ماذا؟؟

- أنها جثة عمّي.. لقد انتهيت من المُعاينة الآن.. هناك شُبهة جنائية بلا أدنى شكٍّ، أنا آسِف.. شِدّي حِيلك، سيتمُّ نقل الجُثمان إلى المشرحة بعد قليلٍ..

سمِعت ما قال وشعَرت أنّني خارج الدنيا، كان لا زال يتحدّث بينما صرَخت بأعلى صوتي قبل أن أرتَمي على الأرض، ولا أتذكّر إلّا أطياف «سما» و«راحيل» وكل شيء يتلاشى من حولِي.

***

يبدو أنّني لم أفقِد الوعي لفترةٍ طويلة، حيث إنني وجدت نفسي أقفُ مع «سما» و«إيهاب» و«إياد» أمام باب «مشرحة زينهم»، كان ذلك قبل وقت الفجرِ بقليلٍ، لا أذكُر متى خرجتُ من البيت؟ أو كيف؟ ولكن كان هناك وقت بين مكالمة «باسل» وبين اللحظة الحالية، وقت سقَط من ذاكرتي، وسمِعتُ «إياد» يقولُ لـ«سما» إن «همسة» قد أقلّت «راحيل» لبيت والدتِه الآن فلا داعي للقلق عليها.

دخلنا من البوابة الحديدية الرئيسية، شعَرت أنّني أسِير خارج المكان والزمان، لم يسبقْ لِي الخوف من الموت حتى بعد موت أمي، لكن هذا المكان مُظلمٌ ومُقبِض وبارد، هل تقف أشباح الموتى في الممرات كما تقف القِطط السوداء في الزوايا الآن؟ وهل تصرُخ الجثث بداخل ثلاجات الموتَى أو تستيقظ في الليل كما يقولون؟

في آخِر الممرّ لمحت لوحة مكتوب عليها «غرفة الغُسل»، انقبَض قلبِي بشدّة وشعرت بالتّيه بداخلي، لكنني سرعان ما انتبهتُ لصدمة في كَتِفي أحدثها رجُل يجرِي ويحمل حقيبة سوداء وهو يتحدّث مع رجلٍ آخر في عُجالةٍ..

- الدكتور وصل، لا أريد مشاكل اليوم، إن هذا الرجل يهتم بالتفاصيل الدقيقة ويتعبنا معه.

لم يعتذر الرجل ولم أشتكِ، اكتفيتُ بتدليك كتفي وأنا أراقبه يجري إلى الداخل ويختفِي من أمامِي، لم أتخيّل في حياتِي أن أدخُل «مشرحة» في يوم من الأيام لأتأكد أن جثمان المجني عليه لـ«أبي»! من الجائز أن يُخطئ «باسل» ويكون الجثمان لرجلٍ آخرَ، وانتابني شعور جارف أنني إذا وجدت أبي سآخُذه معي إلى البيت، ربما لم يكن ميتًا، ربما يستيقظ على سريره في غرفته، قرأت عن حالات كثيرة ظن الأطباء موتها وكانت في غيبوبة فقط.

ها هو «باسل» يأتي إلينا وعلى وجهه آثار البكاء ويتلفظ بعبارات التعازي التقليدية التي لا أريد أن أسمَعَها، أشاهد «سما» تبكي و«إيهاب» يحاول تهدئتها، دخَلنا من بوابة أُخرى إلى ممرٍّ يغلُب عليه الظلام، يتقدمنا «باسل» ونحنُ نسير خلفه في استسلامٍ، يصافح

أحد الأطباء الواقف على عتبة غرفةٍ، ينظُر إلينا الطبيب مُتفحصًا وتستقر عيناه الضيقتان في عيني بدون سببٍ، أين رأيت هذا الرجل من قبل؟ إنه يبدو في أواخر الثلاثينيات؛ متوسط القامة، أسمر اللون، دقيق الملامح، شعره أسود قصير، أتمنى أن يكون كل هذا مجرد كابوس، اقتربا منّا بخطوات ثقيلة وقال «باسل» مُوضحًا..

- دكتور أحمد سليمان.. بعد قليل سندخُل لرؤية الجُثمان.

مدّ الطبيب يده ليُصافحنا سريعًا وهو يُتمتم برفقٍ مُصطنَع:

- البقاء لله.

كنتُ آخر من صافَحه الطبيبُ، ولاحظت أنه أغمَض عينيه لثوانٍ وفتحهما مندهشًا وهو ينظرُ إليّ، حينها اقترب «إيهاب» من الطبيب وتحدّث معه بصوتٍ خافتٍ فرد الطبيب بصوت أشد خفوتًا، لم أستطع تمييز كلمة واحدة، لكني رأيت علامات الصدمة والذهول على وجه «إيهاب»، ثم انصرف الطبيب ليُلقِي بتعليماته إلى رجل آخرَ يبدو أنه مساعده، إنه الرجل الذي صدَم كتِفي ولم يعتذر، أسرع الرجل فدخل الغرفة وبعدَ دقائق من الصمت والترقُّب، صاح الرجل بلامبالاةٍ..

- كله تمام يا دكتور.

وجاءت اللحظة الحاسمة، كنت أثقُ بأنّني سأرى جُثة لرجلٍ آخرَ في هذا الوقت، نظر لِي «باسل» والدموع في عينيه ترفُض أن تسيلَ، وكأنه يقمعها للداخِلِ، وأشار بكفّه للدخول، بخطوات ثقيلةٍ دخَلنا كسِرب نَملٍ منتظمٍ ولكن بطيءٍ؛ الغرفة ضيقة، جدرانها مغطاة

ببلاط القيشاني الصغير الأبيض، في مُنتصفها مِنضدة مُستطيلة عليها رخام أبيض، تمدّد عليه جثمان الرجل وقد غطّوه بالكامل حتى رأسه، لكني تمكّنت من رؤية خيط يتدلّى من الإصبع الكبير في قدم جُثة الرجل، والخيط مربوط بقصاصة ورقية صغيرة عليها كتابة لم أتبيّنها، اصطدمت بشيءٍ في زاوية الغرفة، كانت منضدة صغيرة عليها أدوات التشريح، شعَرت أنني سأفقد الوعي لو تخيلت أنهم سيُشرحون جُثمان أبي، لو كان حقًا هو هذا الجُثمان المُسجّى أمامنا.

وقَفنا جميعًا حول الجُثمان في رهبة لم أشعُر بها من قبلُ؛ شعورٌ بالوقوف في مكانٍ بين الحياة والموت، وقَف «إياد» على يساري، في حين كانت تُمسك «سما» بيدي اليُمنى وكأنّها تتمنّى ما أتمنّى، كانت يدها باردة ترتعش، وعلى يمينها «إيهاب».

وقَف «باسل» بجانب الطبيب أمامِي في الجهةِ الأخرى عاقِدًا ذراعيه يختلِس النظَر إلينا من تحت غويناته الطبية بين الحِين والآخر في ترقُّب ينتظر ردة فِعلنَا، لكنني كنت أشبه بالصنم، نظر الطبيب إلى «باسل» نظرة ذات معنًى، ثم نظر إلينا وقال:

- جاهزين.. شِدوا حِيلكم..

ثم رفَع الغطاء عن وجهه، حرص الطبيب سليمان على أن ينكشف الغِطاء عن وجهه فقط؛ لأنه كان يُمسك بالغطاء عند رقَبته! تأملناه جميعًا لثوانٍ، واقتربت منه، هذا الرجل مِسكين شاحب الوجه وعليه آثار كدَمات كثيرة وقد ازرقّ وجهه، للوهلة الأولى كِدتُ أصرخ فرحًا، إنّه ليس أبي، نظرتُ إلى «باسل» فرأيته ينظُر إلينا جميعًا في ترقُّب، أما «سما» فقد مالَت على الجُثمان واحتضنته وبكَت في لوعةٍ!

وبدأت أجِذبها وأردّد بحسمٍ..

- إنه ليس أبِي.. لماذا تبكين؟

أبعَدني «إياد» عنها برفقٍ، ولاحظتُ أنّهم جميعًا ينظرون إليّ في شفقةٍ، فقلتُ..

- لماذا تنظرونَ إليّ جميعًا وكأنني فقَدت عقلي؟ إن لأبي شامةً مميّزة على كَتِفه سأُثبت لكُم جميعًا أنه ليسَ أبي.

بسرعةٍ أمسَكت بالغطاء وكشَفت الجُثمان، فظهرت الشامةُ واضِحة على ذِراع أبِي ورأيتُ مشهدًا مزّقني، لقد كان هناكَ جُرح طولِي كبيرٍ يمتدُّ من الصدرِ وحتى البطنِ، رأيتُ أحشاءهُ من الداخل مُتهتّكة! مَن الذي فعَل بكَ هذا يا أبي؟ انهارت «سما» في صُراخٍ مستمرٍّ فأبعدَها «إياد» و«إيهاب» عن أبي، وفي لحظات رأيتهم جميعًا كالأشباح من حولي، وسمِعت «باسل» يصيحُ..

- سليمان.. ساعِدني إن «مورين» تفقِدُ الوعي.

***

«جثمانٌ في طَور التحلّل الرّمي الأوّلى، حيث وُجِد بمناظَرة الجُثمان جُرح قطعِي حيوي طوله ٧ سم، وعرضه ١.٥ سم في منتصف الصدر، وجُرح قَطعِي جراحِي مائل في الجهة اليُمنى من الظّهر، كما وجُدت إصابات ردية وسَحجات غير حيوية بعموم الجُثمان».

بعد مرورِ يومين، وفي المساء.. وقف «باسل» في ممرّ المشرحة بصُحبة الطبيب «أحمد سليمان» يُطلعنا على هذا الجزء من تقريره

بشكلٍ ودّي؛ ذلك لأنّني لا أُريد أن أُفارق أبي؛ فطلَبتُ من «باسل» الذّهاب إلى المشرحة، وبقيت أسأله كثيرًا عن التطوراتِ، وأنا أعلَم تمامَ العِلمِ أن ما أفعله دَربٌ من الهزل، إذ إن قضيةً كهذه سوف تأخُذ وقتًا يعلمه الله للوصول إلى الحقيقة، تحملني «باسل» مُتعاطفًا ولم يتركنِي؛ لأنه وَسِيلتي الوحيدة في تواجدي هُناك، إذ إنه غير مسموح لِي برؤية أبي إلا عند التعرُّف عليهِ وعند أخذ جثمانه للدفن، وكنت أعلم تحفُّظ الطبيب الشرعي «أحمد سليمان» وضِيقه من هذا الأمر، فلم يُسمح لِي برؤيته مرّة أخرى، في حين لم يَسمَح «إيهاب» لـ«سما» بالذهاب إلى المشرحة؛ لأنه يُعطيها المهدئات، لكنها فضّلت الإقامة معِي في بيتِ العائلة لحين السماح بالدفن وإقامة العزاء، حين قرأ «باسل» هذا الجزء من التقرير نظَر إليه «إياد» الذي فاجئني بضحبة «همسة»! عقَد ذراعيه وقال في تهَكُّمٍ:

- هل هذا تقرير الطبيب الشرعي النهائي؟

نظر «سليمان» إلى «إياد» بغضبٍ وقبل أن يتحدّث قال «باسل»:

- إنه جُزء صغير من التقرير، فقط أردت أن أُعلمكم بالمُفيد مِنه.

قال «إياد» بسخريةٍ:

- لكننا لا نفهَم شيئًا منه؟

تجاهله «باسل» وكأنه لم يقُل شيئًا ونظَر إلي وقال:

- هناك شيء عجيبٌ ومؤذٍ جدًا، لكنّني أُريدكم أن تعلَموه، إن القاتلَ أخَذ أعضاءً من جُثمان الوالِد.

تسمّرت في مكانِي ولم أستطع حتى السؤال؛ فأكمَل «سليمان»

بصوتٍ خافتٍ:

- إن أعضاءَ المخّ والقلبِ والكُلي والكَبِد قد شرقوا! هناك احتمالات كثيرة وراء ذلك.

قلتُ في أسَى:

- المخّ؟ هل شقُّوا رأسَه؟ كانت رأسه سليمة عندَما رأيتُه!

زفَر «باسل» في ضِيق وقبل أن يتحدّث ربَت على كتِفه «سليمان» وهو يوجّه إليّ كلماته:

- عملية استخراج المخّ من داخل الجُمجمة من الممكن أن تتمّ دون فتح جراحيّ، لقد تم شَفط عضو المخ عن طريق فتحة الأنف، السؤال الذي يطرحُ نفسه الآن.. لماذا جرّدوه من هذه الأعضاء الحيوية؟ هذا ما سيبحثُ عنه «باسل» بالتأكيد.

نظر «إياد» إلى «باسل» نظرةً في باطنها استهزاء وقال لـ«سليمان»:

- بالطبع، لكن أليس لديك تفسيرٌ مبدئي الآن؟ أعني من خلال خِبرتك في الطب الشرعي.

مسَح «سليمان» على ذقَنِه ومطّ شفتَيه وضاقَت عيناه الصغيرتان أكثرَ وهو يقول:

- والله هذا شيء نواجِهه أحيانًا، أصدقكم القول ليس كل الجرائم تُكتَشف، وليس كل ما يُكتشف يُعرف السبب الحقيقي وراء فِعله، لكن دَعني أقُل لك إنّ هذه الأعضاء بالتحديد تُسمى بـ «الأعضاء النبيلة»

وبدون أحدها يتوقف الجسم عن العمل ويموت الإنسان!

قال إياد:

- تقصِد تجارة أعضاء؟

مطّ «سليمان» شفتَه السُفلى وهو يقول في إنكار:

- لا أُريد أن أتطرّق إلى خُزعبلات لكنها للأسف موجودة، يصدّقها الناس ويتصرّفون على أساسها فنَرَى جرائم قتل غاية في الغرابة والقسوة، ولكن هذا مجرّد تفسيرٍ شخصي بحتٍ.

كدتُ أتهاوَى من جديدٍ، لكنني كنت قد أقسَمت أن أبقى قوية من أجل أبي، أستطيع أن أنهار لاحقًا عندما يرتاحُ أبي ونكشِف سرّ قتلِه، وسألت «سليمان»:

- ماذا تقصِدُ بخُزعبلات؟

أجابني بسهولة:

- القرآن يُحدثنا عن وجود السِحر، لقد صادَفت بعضَ الجرائم المُتعلقة بهذا الشأن، وقد أُخذت من الجثة هذه الأعضاء بالتحديد؛ لذلك كان اختفاؤها بمثابةِ لمبةٍ أنارت جزءًا لم أُحب أن أذهب إليه من البداية، سنكتَشِفُ الأمرَ لا محالةَ.

هزّ «باسل» رأسه غير مُقتنعٍ بحديث «سليمانَ» وظهَر في عينيه الرفض، حينها وقفت «همسة» بجانبي وأحاطت كَتِفي بيدِها وهِي تربّت عليه في تعاطفٍ، بينما كان «إياد» مُقتنع بتحليل «سليمان» المبدئي.. أردف «باسل» بحسم:

- دعونا لا نتعجل شيئًا، إن الجثمان ما زال قيد التشريح، ولا زال أمامنا عمل طويل في التحريات.

قال سليمان:

- معكَ حقٌّ.. لا زال أمامنا عمل كثير..

ثم نظَر إليّ «سليمان» وقال بحسمٍ مخلوط بشفقةٍ:

- لا أظن أنكِ تريدين رؤية والدك أثناء أو بعد التشريح، أستئذنكم.. أمامي كثير من العمل.

سريعًا تحرّك سليمان نحو غرفة التشريح، وتعلّقت عيناي به وبالغُرفة وقد انخلع قلبي من مكانِه وأنا أتخيل ما قاله للتوّ، أشعُر أنّني أودّ أن أنادِي على أبي، وجزء من عقلي يُحدثني أنه سيُجيبني بلا شكٍّ، أغلق «سليمان» باب الغُرفة التي يرقُد أبي فيها منتظرًا السلام والعدل والحق؛ الحق الذي طالما دافع عنه وأخلص له طِيلة سنوات عمره، فلم يؤذِ أحدًا أو ينصُرَ ظالمًا، الآن هل تزد لهُ الدنيا الخير الذي فعَله؟ رنّ هاتف «إياد» فأجابه فورًا..

- «راحيل» يا حبيبتي كيف حالك؟

استغرقَت المحادثة وقتًا قصيرًا، نظَر لي بعدها وقال:

- لقد أخذ «إيهاب» سما للطبيب وتركا «راحيل» في البيت بمفردها!

اندَهشت وقالت «همسة»:

- ماذا؟ لا بد أن نذهب بسُرعة إليها!! كيف يفعل هذا؟!

نظر لي «إياد» مُستاءً، وكأنه ينتقد «إيهاب» بلا كلمات وقال:

- مورين.. لا نريد أن نتأخّر، «همسة» هل ستأتين معنا؟

ربّتت على كَتِفي في حنوٍّ وأردَفت همسة»

- بالطبع.. لن أترك «مورين».

قال «باسل» موجّهًا حديثه إلي:

- مورين.. والدك رحمه الله كان في منزلة أبي، وأنا لن أهدأ حتى أصِل بالقاتل لحبل المشنقة، لكن صدّقيني، وجودك كل يوم لا يُفيدُ.

قال «إياد» متجاهلًا «باسل»:

- لننتظر تقرير الطبيب الشرعي الكامل، وننتظر تطورات القضية.

استأذن «باسل» في الانصراف وأدرَكتُ أنني لن أرَ أبي مرةً ثانية، ربما مرة أخيرة قبل مراسم الدّفن، استسلمت لمَا يقولون، وبينما أنظر نظرةً أخيرة لباب غرفة التشريح التي بها أبي فإذا بي أرى «راحيل» تجري بجانبي بفستانها الأسود وضفائرها الطويلة تطير في الهواء، اخترقت «راحيل» باب الغرفة ودخَلتها!

هُنا أيقنت أن ما يحدث مع «راحيل» لا دَخل لهَا به، وأن كل الأمور الغريبة تنبع من عقلِي، لا بد أن أستشير طبيبًا نفسيًا، أمسكت «همسة» يدي لنخرج من المشرحة، لكن «راحيل» ظلّت تلهو وتجري من حولي إلى أن استَقلّلنا سيارة «إياد» مُتجهين إلى بيتي، إن الهلاوس قد زادت عن الحدّ ولا أعلمُ كيف أتخلّص منها!

***

(٨)

إنّ شعور الفقد يشبه الضغط على جُرح ينزف، يتغلغل بداخلي يومًا بعد يوم، ليجعلني أشعر بغُصة دائمة، وكأنني أقف على حافةِ الحياة وأنظر برؤية مشوّشة إلى المجهول، فلا شيء يستحق الفضول بعد رحيل الأحبة، ومع ذلك لا بد أن أستكمل طريقي وسط الضباب، إنها سُنة الحياة.

لكن وجه أبي لا يفارقني في كل أحواله ولا أتقبل فقده، خاصة بعد فقد أمي، لقد ظننت أنهما سيحضران غرسي ويشاركاني نصائحهما؛ لذلك فقد دخلت دوامة رغمًا عني بعد أن كنت أعيش في سلام وأخطط لمستقبلي مع «إياد» وأعتقد أنني أحبه، لكن حياتي انقلبت فجأة، فرحلت أمي، وتبدّل حال «راحيل» حتى إن تعليمات الطبيب النفسي لا تُجدي نفعًا معها، وتوترت علاقتي بـ«إياد»، ثم اختفي أبي لنكتشف موتَه بأبشعِ الطُرقِ؛ الطرق التي كنت أواجهُها في القضايا فقط، وكنت أجزم أن الفاعل لا بد وأن يكون مخبولًا، لكني أدركت أن هذه القضايا ليست محسومة كما قال «باسل»، والآن أتأكد من صحة رأي أمي عن «إياد»، وأصدّقها، يا ليتني أعَرتُ كلامها انتباهي، إنه يتأفّف وينظرُ في ساعته، ثم يتحدث عن ضِيق الوقت في هذه الظروف! إنني أشعر أن «همسة» هي مَن تحثُّه على مرافقتي، إن تصرفاته كشفَت لي حقيقة شخصيته، وكشفت أيضًا مشاعري نحوه، إنها ليست حقيقية بالقَدر الذي يجعلني أتزوّجه كما قال أبي، إنني فقط أدعو الله أن يمرّ كل هذا بسلام.

في الطريق إلى البيت أصرت «همسة» أن تبتاعَ وجبات جاهزة؛

لأننا جميعًا مرهقون، وعندما أبديت عدم اهتمامي ذكّرتني أن «راحيل» طفلة ولا بد لها من التغذية السليمة، ولا ذنبَ لها فيما يحدثُ؛ فوافقت، عند دخولنا شارع «البرجاس» كان الوقت مُتأخرًا، وكانت «همسة» تُجري الكثير من المكالمات الهاتفية مثل «إياد»، إن هواتفهما لا تتوقّف، عند باب الشقة كنت أبحث عن المفتاح في حقيبتي و«إياد» و«همسة» يحملان الطعام وينتظران، كان ضوء الشقة الأصفر خافتًا خلفَ شُراعة الباب الزجاجية، ثم أضاء كله مرة واحدة، لا بد أن «راحيل» شعَرت بنا، وأنها ستفتح الباب، أم أنها لم تشعُر بالإطمئنان وحدها فأنارت الضوءَ كله، حين تذكرت أنها بمفردها بدأت أتوتّر وأتحدّث بعصبيةٍ:

- أين المفتاح اللعين؟

أردفت «همسة»:

- أغطِني الحقيبة يا «مورين»..

فقال «إياد» بسخريةٍ، وهو ينظرُ للضوء..

- الأسهل أن تضغط إحداكن على الجرس، فمن الواضح أن «راحيل» مُستيقظة!

أغلقت «همسة» الحقيبة، وعندما هممتُ أن أضغط الجرس سمِعنا صوتَ أمّي بالداخل تنادِي!!..

- راحيل.. أريدُ العطر الذي أهديتنِي إياه مع «إياد» في عيدِ الأم.

نظَرنا إلى بعضِنا البعض في ذهولٍ تام، نظرت «همسة» إلى «إياد» وقالت:

- يبدو أن «سما» قد وصَلت..

نظر «إياد» إلى «همسة» وقد بدَا مُرتبكًا؛ لأنه يعلم صوت أمي جيدًا، وقد سمِعها تتحدث عنه للتوِّ! وقبل أن أتحدث سمِعنا صوتَ أبي واضحًا..

- يا «عالية».. لماذا تصرُخين؟ هل أنت بخيرٍ؟

جحظت عيوننا!! ولم نَنبِس بكلمةٍ واحدة!! سمِعنا صوت «راحيل» تجري وتلعب، ثم جاءتنا خبطةٌ قوية على الباب بالداخل، ثم سمِعنا ضَحِكات «راحيل» تُجلجل! تراجعت خُطوة للوراء، ابتلَع «إياد» ريقَه وهو يقول:

- لا بدّ أن «راحيل» تشاهِد فيديوهات لجدّها وجدتها.

لم نُعلق على ما قاله، أخذت حقيبتِي من «همسة» التي أصبحت كالصنم، ووجدت المفتاح في أقلّ من دقيقة، وكأنني لم أجده منذ البداية كي نسمعَ ما سمعنا! فتَحتُ الباب ودخلنا ببطء، كانت علامات أقدام «راحيل» تملأ الشقة! علامات سوداء تملأ السجاد والأرضية الخشبية مُلطخة برائحة نتنة! لا بد أنها خرجت وعادت، لكن هذا غريب! لأنها إذا خرجت فأين ذهبت؟ وإن عادت كيف دخلت؟ وكيف تدخُل مُتسخة فإن أمي علّمتها منذ نعومة أظافرها كيف تُحافظ على نظافة البيت! تفحّصت البيتَ فلم تكن «راحيل» في غرفة الاستقبال، كما أن الصالون خاليًا، لكن أضواء الشقة كلها مُضاءة منذ أن فُتح البابُ!

وضع «إياد» و«همسة» الطعامَ على المِنضدة، ورأيت باب غرفة أبي

مواربًا والغرفة مضاءة، ذهبت إليه وأنا أردد..

- «راحيل» يا حبيبتي.. لقد أحضرنا الطعام، لا بد أنك تتضوّرين جوعًا، إني آسفة.

لكنها لم تُجِب، فتَحت بابَ الغرفة فوجدتُها خالية! لكن ما حدث حقًّا أخافني حينها، حيث وقَعت دُميتها اللعينة على الأرض فجأةً! لا أعلم من أين أتَت! لا أعلم شيئًا!! لكنني أعدتُها إلى السرير وأنا أبسمِل.

عندها خرجتُ.. أخَذتُ أفتحُ غرفة تلوَ الأخرى فأجدها شاغرة؛ الحمّام، غرفة الصالون، غرفة المعيشة، البلكون، الحمام الصغير، لا يوجد أثر لـ«راحيل».. «إياد» و«همسة»: يقفان في ذهولٍ كصنمان وأنا أصرخُ في عصبيةٍ..

- أين ذهبت «راحيل»؟ لقد سمِعتُما ضحكاتها منذ قليل.. أنا لا أهذِي!

أمسك «إياد» بهاتفه واتصلَ بـ«راحيل» فسمعنا جرس هاتفها يأتي من غرفة أبي! وحينها دلفنا جميعًا إلى الغرفة فسمعنا بوضوح صوت «راحيل» تضحك بشخرية، الصوت يأتي من كل الاتجاهات، وفجأةً ارتمت الدمية من جديد نحونا! نظرنا إلى الجُدران في خوفٍ و«همسة» تتمتم بالدعاء بصوت خافت، نظر «إياد» لها وقال:

- «همسة».. لا بد أن تساعدينا.

صرختُ فيهما..

- قبل أن تساعدنا.. أين ذهبت «راحيل»؟ هل اختفت مثل أبي أم ماذا؟

قالت «همسة» وهي تتفحص الشقة..

- هذا الذي أراه بعيني يفوقُ ما سمعته من «إياد»، لا بد أن نذهب للشيخ حسن في أسرع وقتٍ.

رنّ جرس هاتفي، وكانَت «سما»، لم أستطِع أن أُجيبها. أشار «إياد» أن أجيبها لكنّي صرختُ فيهِ..

- ماذا سأقولُ لها حينما تسأل عن ابنتها؟ «راحيل» ضاعت؟ لا أدري ماذا أفعل؟

بينما ظلّت «همسة» تُتمتِم بصوتٍ خافت وصلتني رسالة من «سما» تقول بأنها كانت في حالة إعياء شديدة.. وقد تركا «راحيل» نائمة، لكنها قد أنهَت زيارتها للطبيب، وستتأخر مع «إيهاب» لإحضار بعض الأغراض من شقتِهما، كيف تركتها نائمة!.. وقد علمت «راحيل» أنهما ذهبا للطبيب؟!! ربما سمِعتهما! كان «إياد» يبحث في الشقة عن «راحيل» ويحدّث نفسَه..

- أين عساها أن تكون؟ لقد وصَلنا في أسرع وقت ممكنٍ!

ثم خرج باحثًا عن حارس العمارة ليسأله عنها، فدخلت «همسة» تُعيد كرة البحث من جديد، حينها لم أتحمل فكرة ضياعها مثل أبي، إن السيناريو يتكرر بشكلٍ آخر، وقبل أن يعود كنت قد اتصلت بباسل لأخبره، قال: إن «راحيل» بنت شقية وعلينا أن نبحث جيدًا، لعلها تكون مختبئة لإثارة الاهتمام. ثم قال إنه سيأتي في الطريق، بعد أن عاد «إياد» أخبرته بأنني قد أبلغت «باسل» فلم يهتم، قال: إن حارس العمارة أصرّ أنه لم يرَ «راحيل» اليوم قطّ!

جلسنا في صمتٍ، عقلي يعملُ بسرعة جنونية، ولساني قد عجز تمامًا عن النُطق، والغصة في القلب تزداد، وشعَرت بآلام كالكهرباء تصعق ضِرسي ثم تختفي لتصعقني من جديدٍ مرات كثيرة، لقد تبدلت الأحوال لأسوأ ما يكون، وبعيدًا عن حالتي الصحية لا أتخيل ردة فِعل «سما» و«إيهاب» من الآن، أين أنتِ يا «راحيل»؟

الوقت يمرّ ببطءٍ شديد، لكن «باسل» لم يتأخر، وعندما وصَل شرح له «إياد» كل ما حدث، سألني أسئلة كثيرة أجبتها بنصفِ عقلٍ، دائمًا يُعطينا «باسل» هذا الـ "Poker Face" فلا أستطيع أن أخمّن حدسه أو مشاعره.

بعد أن بحث «باسل» بنفسه عن «راحيل» في الشقة كلها، وتأكد أنها ليست مختبئة كما يظن، وبعد سؤال حارس العمارة، وحتى حارس السفارة التي أمامنا، تأكدنا من الخطوة القادمة، قال «باسل»:

- بما أن «راحيل» ليس لديها صديقة أو مكان قريبٍ تذهب إليه، فمن الأفضل أن نُسرع في تقديم بلاغٍ في قسم الشرطة.. و...

قاطعه جرس الشقة الذي جعل قلبي يهبط بي إلى سابع أرضٍ، إنها «سما» قد حضرت، قام «إياد» بخطوات ثقيلة يفتح الباب فدخلت «سما» تحمل طعامًا، ومن ورائِها «إيهاب» يحمل شنطةَ سفر كبيرة، وضعا ما معهما من أغراض وألقيَا السلام، ذهب «إيهاب» إلى الحمّام في حين نظرت «سما» إلى بتفحُص وقالت:

- تبدين أسوأ من أي وقتٍ مضَى، لا بد أن ترتاحي..

ثم نظرت إلى الأرض بتعجبٍ وقالت..

- هل هذه أقدام «راحيل»؟ أين هي؟ هل خرجتما؟ هل تركتيها تفعل ذلك يا «مورين!».. إنه سجاد أمي العتيق؛ سأعاقبها عقابًا شديدًا..

وقبل أن أتفوه بكلمة ذهبت «سما» إلى غرفة والدي حيث تنام «راحيل» معي منذ أن قُتل أبي، وبينما الجميع مُترقب ما سيحدث سمِعت «سما» تصرخ بخوفٍ:

- مورين..

نظرنا جميعًا إلى بعضنا البعض ولم أعلم كيف أواجِهها؟ وماذا أقول؟ لكن صوتها جاءني عاليًا تقول:

- إن حرارة «راحيل» تخطّت الأربعين درجة وترتجِفُ بشدةٍ.. لذلك لم تخلَع حذاءَها.. إنها مريضة، كيف تتركيها على هذه الحال ولا تخبريننى؟!

نظرنا جميعًا لبعضنا في اندهاشٍ وهرعنا إلى الداخل، فإذا بـ«راحيل» نائمة ترتجفُ وقد تحوّل لون وجهها إلى لون الدم من شدة الحرارة، قالت «راحيل» في وهنٍ وقد بلل العرق شعرها ووجهها:

- منذ قليلٍ دخلتِ الغرفةَ وناديتُ عليكِ كثيرًا يا خالتي، لكنك كنتِ تبحثين عن شيءٍ..

أردفت بإنكار:

- هذا لم يحدث!

قالت بوهنٍ:

- حدّث.. حتى إنني ألقيتُ الدبّ دُميتي نحوكِ لكي أجذبَ انتباهكِ، لكنكِ لمْ تبالي!

نظرَتْ لي «سما» في عتابٍ ولومٍ شديدين وقالت:

- لم تسمعكِ يا حبيبتي.. أحضِري الكمّادات وخافضَ الحرارة بسرعةٍ.

لجّمت المفاجأةُ ألسنتنا جميعًا ولم يتكلّم أحدٌ، عندما خرج «إيهاب» من الحمام لم يكترث كثيرًا لرؤيةِ ابنته الوحيدة مريضة؛ لأن مناعة الأطفال ضعيفة؛ وأنها ستتعافي قريبًا كما يردّد دائمًا، ولم نُعلم «سما» ماذا حدّث أبدًا!

لكن الشيء الأكثر ريبة، والذي لفَت انتباهنا جميعًا هي تلك الدائرة الحمراء على الحائط فوقَ سرير «راحيل»، وفي منتصف الدائرة كُتبت: «راحيل رقم ٦» بقلمِ رَصاص! لقد توقفت «راحيل» عن عادة الرسم على الحائط منذ سنواتٍ، ذهبت إلى حيث أحفظ أقلامي الرصاص في درج المكتب فوجدتهم مُحطمين! هل حطمتهم راحيل؟ يا تُرى ما الذي جعلها تفعل ذلك؟! وهل علمت «راحيل» بعقدة الأقلام الرصاص؟ أم أنها أصبحت مثلي؟!!

***

(٩)

في الصباح عادت «راحيل» لطبيعتها وكأن شيئًا لم يكن! تعافت في غضونِ ساعات بشكل مُريبٍ! حتى إنها أنهَت فطورها بشهيةٍ مفتوحة! وهذا لم يحدث منذ أنِ انتقلت أمي إلى رحاب الله، حاولت أن أمحي الدائرة من الحائط لكن الألوان المستخدمة ثابتة بقوة، فلم يُجدِ معها المسحوق العادى، سأحاولُ مجددًا عندما أبتاعُ مادة منظفة قوية، عندما تحدثت معها عن اختفائِها البارحة اندهَشت وظنّت أنني أُداعبها! فقالت إنها لم تذهب لأي مكانٍ، لكنها شعرت ببرودة شديدة جعلتها ترتجفُ، وقد رأتني ورأت «إياد» و«همسة» و«باسل»، وكل منّا على حدة يدخل الغرفة ويبحث عن شيء ثم يخرجُ، بينما هي تنادينا ولا نسمعُها! ولكنها تُنكر الرسم على الحائطِ والسير بحذاء مُتسخٍ على السجاد، وتؤكد أنها لم تفعل ذلك أبدًا!!

واحتلّ ما يحدث مع «راحيل» جزءًا كبيرًا من تفكيري، حتى إنه كاد يُنسيني أنني في فترة عصيبة وأنني أنتظر تقرير الطبيب الشرعي كاملًا، ولا أُطيق تخيل مشهد دفن أبي، وأتخيله فقط في إجازة وسوف يعود قريبًا!

ورغم اندهاش «باسل» البارحة فإنّه لاحقًا لم يقتنع بما حدَث، وفسّره بأن «راحيل» لديها مكان اختباء لا نعرفِه في الغرفة، وأنها تتلاعب بأعصابِنا لتصبح محور الاهتمام، وأنها بالطبع قامت بالرسم على الحائط لإثارة غضبي فقط ولإرهاقي في تنظيف ما فعلته، أما آثار أقدامها على السجاد فهي انتقامٌ مني لتركي جدتها وحيدة يوم وفاتها، وأنني لا بُد أن أتابع مع الطبيب النفسي لأن «راحيل» تحتاج

إلى اعتناء كبيرٍ في ظل هذه الأحداث، معه كلّ الحق، إن «باسل» شخص يُعتمد عمله بشكلٍ أساسي على الأدلة والبراهين، فكيف له أن يفهم ما حدث؟ وكيف يفسر أشياء لا يراها إلا في أفلام الرعب والفانتازيا؟ إنني شخصيًا أكذب نفسي بين الحين والآخر.

ورغم قلق «إياد» على «راحيل» فإنّه لم يطمئن على بُعدها، بل إنه لم يناقشني فيما حدَث، وفِي تفسيرِه، الأحداث تكشف حقيقة شعوره يومًا بعد يوم، إنه يحمل الكثير من مشاعر الأبوة نحو «راحيل»، وهذا ما يفسر وجوده بقوةٍ الآن، الأمر لا يتعلق بخطبتنا.

انتقل «إيهاب» في الصباح عائدًا إلى بيته بحُجة أنه لا يريد أن يكون عبئًا علينا، وأنه أن أبقى على راحتي في بيتي، لا شك أنها فرصة ذهبية لقضاء وقته كيفما يشاء دون أدنى مسئوليات، رحمك الله يا أمي لقد أصبتِ الحكم.

انتهزتْ فرصة نوم «راحيل» و«سما» في سلام لم نعرفه منذ أيامٍ، وقررت أن أذهب لطبيب الأسنانِ لأرى ماذا أصابني، كُنت شاردة طوال الطريق، وكأن السيارة تعرف طريقها وتتحكم بي، دخلت العيادة، وحمدت الله أن عدد المرضَى قليل، سيدة مُسنة قعيدة على كرسيٍ متحرك، تضع غطاء رأس أسود اللون مثلث الأبعاد، وتكتفي بربطه مرة واحدة أسفل ذقنها على الطريقة القديمة، بصحبة ابنِها الذي تركها ليحضر شيئًا من سيارته، وامرأتان لم يكفًا عن الحديث الهامس، بعد دقائق أشارت الممرضة إلى المرأتين فدخلتا للطبيب، وبقيتُ وحدي مع العجوز، رن الهاتف ورأيت اسم «إياد» فلم أُجِبه، ثم بعدها بدقائق كانت «همسة» تتصل، لا بد أنهما معًا ويريدان أن

أنضم لصحبتِهما، لست في مزاج يسمح لي برؤيتهما، لا أعلم لماذا بثّ أضعهما معًا في الحديث، والعجيب أنني لا أغارا لا بد أن أواجه «إياد» بمشاعري هذه في أقربِ وقت.

وبينما كنت شاردة في كيفية المواجهة، رأيت مشهدًا لم أراه إلا في أفلام الرعب! تحجرت السيدة المُسنة القعيدة في مكانها لثوانٍ، ثم التفَتت إلي وقامت مُتجهة نحوي! سارت بحركة روبوتية، كيف سارت السيدة القعيدة؟! ارتعبث حتى كدتُ أن أترك المكانَ، وكأنها قرأت ما أفكر فيه، فوجدتها أمامي في ثوانٍ وقالت مُحذِّرة..

- لماذا تركتِ «راحيل» وحدها؟

جحظت عيناي وأردفتُ مُندهشة:

- راحيل!!

نظرت السيدة في كل الاتجاهات وكأنها إنسان آلي حقيقي ثم نظرت في عيني نظرة باردة وقالت؛

- يجب أن تغادري الآن.. «راحيل» سوف تقتُل «سما».

ثم عادت سائرةً، وجلست على الكرسي المتحرك وفقدَت وعيها! فتحت الممرضة الباب وخرجت المرأتان، ثم نادت على العجوز، عندها وقبل أن أُعيد كلماتها مرة أخرى على عقلي، أدركت أن هناك من يُحذرني على لسانِها! لكن مَن؟ أمسكت بحقيبة يدي، وأنا أفرّ من المكان والممرضة تحاول إفاقتها وتنظُر نحوي وتصيحُ..

- ماذا حدَث لها؟

عادت لي ذكريات موت أمي عندما كُنت أهرول مثلما أهرول الآنَ قاصدة البيت، لا أعلم لماذا تحلّ علي الكوارث من كل الاتجاهات، وماذا أصاب «راحيل» يا ثُرى؟

وكأن السيارة تعلمُ وجهتها للمرة الألف، لا أعلم كيف، ومتى وصلت! إنني أقود كالمجانين، أمام العمارة في شارعنا الهادئ هرولت أصعَد الدرج متلهفة خائفة وحارس العمارة يتابعني ويردّد..

- أستُر يا ستّار.

عند باب الشقة بالخارج كانت الأجواء هادئة، أخذتُ نفَسًا عميقًا وفتحت الباب، عندما دخلت كان المشهد مطمئن إلى حدٍّ كبير، إن البيت كما تركته، ويبدو أن أحدهما في الحمّام، زفرتُ زفرةً طويلة وأنا أمسح العرق عن جبيني وبدأت يداي ترتعشان، ألقيتُ بحقيبتي والمفاتيح على المنضدة في غرفة المعيشة وجلست أستريح، لكنني سمِعت صوت همهمات قريب!

قمت من غرفة المعيشة أتتبع الصوت حتى وصلت إلى غرفة أبي، وهالني ما رأيت؛ سبعة سيدات عجائز يتشحن بعباءات وأخمِرة سوداء، يجلسن في دائرة حانيات الظهر على منتصفِها، لا تظهر وجوههن، يتهامسن بلغةٍ لم أسمع بها من قبلُ، إنهن يخفين ما بداخل الدائرة، وهنا سمِعت صوت راحيل..

- «مورين».. أنقذيني.

شعَرت بي السيدات، فبدأت واحدة تلوَ الأخرى تلتفتُ إليّ منحنية، كان السوادُ الحالك مكان الوجوه، أخذتُ أبسمِل بداخلي بلسان لا

يستطيع الحركة، وأنا لا أستطيع التنفس، وبدأت أقنع نفسي أن ما أراه ليس حقيقيًا تمامًا كما المرات الفائتة مع راحيل، بسرعة ذهبت إلى غرفة نومي فرأيت «سما» نائمة في سريرها وحدها، وبدأت أبحث عن «راحيل» فلم أجدها، وهنا هرعت إلى غرفة أبي بعد أن علا صوتها مرة أخرى، وهنا خلعت العجائز الأخمرة السوداء فرأيت وجوه لم أرَ دمامتها في حياتى، كُن يضحكن بأنيابٍ خرجت من مكانها وراحيل في منتصف الدائرة مُقيدة من يدايها ورجليها، تنظر إليّ وتصرخ! صرخت فيهن:

- إتركوها..

قالت إحداهن بصوت أجشٍ:

- لا بد أن توفّي العهدَ..

صاحت «راحيل» في هلع:

- لن يتركونني يا «مورين»:

هرعت إليها غير مبالية بشيء؛ فاختفت العجائز دفعة واحدة! وبدأتْ أفك القيود عن «راحيل» المسكينة، وفجأة تصلّب جسدها وتشنّج، ثم تلفظت بكلمات بلغة غريبة وبدأت تنتفضُ بشدةٍ، وأنا أبكي وأصرخُ:

- راحيل.. ماذا بكِ؟

إلى أن جاءتني «سما» فزعة على صوت الصراخ وبدأت تحتضن ابنتها وتصرخُ في وجهى..

- ماذا حدث لها؟ وما هذه الحبال.. هل كانت مُقيدة؟!

لم أستطيع الإجابةَ، وأنا أنظر للحبالِ في يدي غير مُصدقة لما يحدث، وبدأت أفكر في الاستعانة بـ«همسة»، لعلي أجِد الحلّ عند شيخِها، بثّ مقتنعة أن ما تمر به «راحيل» مؤذٍ للجميعِ.

***

(١٠)

كانت «راحيل» ترتدي رداءً أسودَ باهتًا وكئيبًا، تنسدل على كتفيها ضفائرُها السوداء الطويلة، وجدتُها تقف في البلكون وبجانبها غرابٌ أسود! المشهد كان استثنائيًا، إذ إنها بدت لِي وكأنها تتحدّث إليهِ! تسمّرتُ في مكاني وخُيل إليّ أن الغراب ينظرُ إليّ ثم يهمِس في أذن «راحيل» بصوتٍ مبحوحٍ! نعم لقد سمِعت صوتَ رجلٍ يخرج منه!! صوتًا أجشّ يُحدّثها بصيغةِ الأمر ويقول

- أقتليهِ..

لا بدّ أنني أحلُم، أريد أن أنهضَ من هذا الكابوسِ، لكن عوضًا عن ذلك اقتربتُ منها وقلت:

- راحيل.. كيف دخلتِ هُنا؟ ومن أين جاء هذا الغُراب؟

التفتَت إليّ «راحيل» والغرابُ يُتابعنا، وشعَرت أنها تمثّل البراءةَ وهي تتلفّت حولَها وتقول خائفة:

- باسل!! مَن الذي جاء بي إلى هُنا؟

أحتضنتها لأطمئنها قائلاً:

- لا أعلم! لكن لا تخافي يا حبيبتي.. سأتقصى الأمر وأعرف من فعل هذا..

لكن فجأة تغيرت ملامحها ونظرت إلى الغراب ببرود ثم إليّ وكأنها تمثالٌ وقالت مُتعجبة:

- ألا تعلم حقاً؟ إنها هي.. إنها بجوارك كل ليلة لكنك لا تراها!

حاولتُ أن أبدو ثابتًا، في حين انتابني شعورٌ لم أختبره من قبلُ، كنت أقرب إلى الخوفِ من أي شعورٍ آخر؛ فقلتُ مُتجاهلاً ما سمعته وأنا أحاول أن أطرد الغرابَ الذي كان يُحدق بنا ليطيرَ بعيدًا..

- هيا تعالي معي، لنذهب إلى «مورين»، لا بد أنها تبحثُ عنك مع أبويكِ.

وعندها تحولت ملامح «راحيل» الطفلة إلى كائن مخيفٍ وقالت وهي تضحكُ وتتوعّدني في نفسِ الوقتِ:

- إن الوقت يقترب من النفاذ، وأنتَ التالي.. إن الجدّ ينتظركَ.

تردّدت أن أمسكَ يدها، فطار الغرابُ بعد أن ملأ المكان بنعيقٍ كئيبٍ، مُخلفًا وراءه بعضَ ريشه الأسود، وحينها فقَدت «راحيل» الوعي وقبل أن تقعَ على الأرض حملتُها وأدخلتُها إلى غرفة المعيشة ويديّ ترتعشان!

حينها استيقظت من نومي وقبضة يدي مغلقة بشدة على شيء! أرتجف والعرق يتساقط من جبهتي، لم يستغرق الأمر ثوانٍ حتى أدركت أنه كان كابوسًا لعينًا، فتحتُ يدي لأجد ريش طائر أسود اللون!

منذ تلك اللحظة لم أشعر بنفسي إلا وأنا أضغط جرس بابكِ ولا زلت أقبضُ على الريش كي لا أصير مخبولًا في نظري، إنني لا أصدق يا «مورين»، لا أصدقُ هذه الخزعبلات!

كان هذا حديث «باسل» الذي بدا مضطربًا حين فاجأني بمجيئه دون اتصال، وحمدت الله أن «راحيل» و«سما» يقضيان بعض

المشاوير، جلس يحكي كابوسه بعيون زائغة، وظل ينظر إلى الريش الذي وضعه أمامنا على منضدة غرفة المعيشة في رهبة ويردد..

- من أين جاء هذا الريش الأسود في قبضة يدي؟

حينها سردت له كل شيء منذ البداية وحتى رأيت الجِبال، أنصت باهتمام هذه المرة وتغيرت ملامحه إلى دهشة حقيقية، لأول مرة أرى ملامح «باسل» تتأثر وفق ما يسمع، ولم يحافظ على ثباته الانفعالي ثم قال:

- لم أصدق يومًا شيئًا من هذا القبيل، هل تذكرين «أحمد سليمان» الطبيب؟

أردفت بسرعة:

- وكيف أنساه؟ إنني أنتظر تقريره بفارغ الصبر.

قال ولا يزال مضطربًا:

- سليمان صديقي منذ سنوات بعيدة، تعاونّا معًا في حلّ كثير من القضايا العجيبة، «سليمان» دائمًا يتحدث عن مساعدة الجثث له في كشف لُغزها، بعض الأطباء الشرعيين يرددون هذه المقولات، وأنا لا أصدق ما يقولون، لكن سليمان.. بات مؤخرًا يشعر بشيء عجيب أيضًا لم أصدقه!

- ما هو؟

- يقول إنه بمجرد لمسه لشخص يرى أشياء من الماضي أو المستقبل! أشياء لا يعلم عنها أدنى شيء من قبل؛ إذ إنه لا يعرف

الشخص نفسه! ويكتشف أن هذه الأشياء لها علاقة بطريقة القتل بشكل ما!

سألته بلهفة:

- وهل حدث شيء مع أبي؟

- لم أسأله؛ لأنني لم أصدق ما يقول منذ البداية.

- وهل تصدقه الآن؟

بدا مضطربًا جدًا، وهو يقول:

- لا أستطيع إلا ذلك الآن.. وتذكرتُ عندما رآكِ لأول مرة في المشرحة وصافحكِ..

توقّف عن الحديث ونظر في عيني بدهشة فأردفت:

- ماذا حدَث؟

- عندما صافحكِ أخبرنِي أنكِ لست سعيدة مع خطيبك، وأنك تفكرين في فسخ الخطبة.. لا أعلم ماذا رأى.. لكن هل هذا صحيح؟

حينها شعرت أن الطبيب «سليمان» سيساعدنا في كشف لغز قتل أبي، أجبته في لهفة..

- هذا صحيح يا «باسل».. وماذا قال أيضًا؟

اتسعت عينا «باسل» مندهشًا وقال بتردد..

- لقد رأى «راحيل» تلعب بجانبك في المشرحةِ! لكن «راحيل» لم تكن معنا! ثم رآها تجلس وسط أطفال ملابسهم مُتسخة، ولكنه لم

يتبين هيئتهم، وفي ثوانٍ دخلت «راحيل» غرفة التشريح إلى جدها.. هذا ما قاله لي.

هنا تذكرت أنني رأيتها في المشرحة أيضًا فابتسمت، وأن هذا ضربٌ من الخيال بالنسبة لي فسألت «باسل»..

- ولم تصدقه بالطبع.

- كعادتي نصحته بأخذ قسط كافٍ من الراحة والكفّ عن الحديث الذي لا ينقطع مع الجثثِ.

- والآن؟

- لا أعلم يا «مورين».. حقًا أشعر بالاضطراب خاصة بعد هذا الحُلم وما خلّفه من دليلٍ في يدي، أنا لا أصدق إلا ما أرى وأسمع، كيف لي أن أصدق أشياء كهذه؟ والعجيب أنني بعدها سمعت صوت الغراب في أذني!

- وماذا قال؟

أجابني وهو في شدة الاضطراب..

- «غادر الآنَ قبل أن ترى الشرَ من عندنا، غادر ولا تقترِبْ من راحيل»!

قُبض قلبي بشدة حينها، وبعد صمت دقائق قليلة قاطعته.. سألته:

- هل أنتَ خائفٌ؟

نظر في عيني واندفع قائلًا:

- لقد تحمّلت من الأزمات النفسية في حياتي ما لا يستطيعُ الجن تحمله..

أردفت بهدوء:

- إذن.. هناك طريق أمامنا لنفهم ماذا يحدث مع «راحيل» ومعنا.. هل تساعدني يا «باسل»؟

أومأ بالموافقة وقال بصوت ثابت:

- أنا معك.. لكن لا بد أن نستعين بـ«سليمان».

***

(١١)

كانت «راحيل» تسير في وسط المقابر، ويُحيط بها دُخان كثيف، كُنت أتتبعها لكنها ظلت تبحث عن شيء، بقيت أتحدّث إليها لكي نخرج من المقابر لكنها لم تسمعني، ثم بدأتُ أحاول الخروج من الدخان بلا فائدة، رويدًا رويدًا بدأ الدخان ينقشع، فوجدت «راحيل» تقف أمام مقبرة أمّي، ثم جلسَت أمامها، فقرأنا لها الفاتحة، وحينما انتهيت وبدأت بالدعاء وجدت القبر ينشق إلى نصفين وحدث أن خرجت منه أمي!

كانت مُخيفة إلى حدٍّ كبير، نظرَت إلى «راحيل» في غضب عارم، ثم أخذَت تخنقها، حاولت إبعادها دون جدوى، وحينها رأيت أبي آتيًا في اتجاهنا فهرولتُ إليه لينقذ «راحيل»، لكنه نظر إليّ بشفقةٍ واحتضنني بقوةٍ وأنا أرى «راحيل» تكاد تختنق أمامي! وحينما حاولت الخروج من أحضان أبي فإذا به يتفتت ويتحول إلى هيكل عظمي ثم تراب وأمي كذلك، ورأيت «راحيل» مُمددة في الأرض تحتضر لكنني أنقذتها، حينها استيقظت فزعة من هذا الكابوس، أدركت أن اللحظة التي كنت أتهرّب منها قد حانت.

لقد انتهى «أحمد سليمان». من تقرير الطب الشرعي، وأصدرت النيابة قرارًا بدفن الجثمان، ولا زالت التحقيقاتُ مستمرة، أبلغني «باسل» عبر الهاتف بأن علينا الذهاب إلى المشرحة لاستلام الجثمان ودفنه. طلب أن أرسل إليه رقم عارف «التُربى» وأنه سوف يفعل كل ما يلزم لمراسم الدفن، وسوف يُرسل سيارة تُقلنا جميعًا، لنبقى معًا في ظرف كهذا، إنه يتحدّث في تفاصيل ستحدث بعد وقت قصيرٍ

ببساطة!

وشعرت أن أبي قد مات من جديد، مات للتوّ، وكأنه كان سيبقى مُحنطًا في المشرحة للأبد! لا أعلم كيف أصِف شعوري ولكنني تائهة ومضطربة، تحضّرنا جميعًا ورفضت «راحيل» أن تنتظرنا عند أيّ من الأقارب أو عند والدة «همسة»، وأصرت على المجيء وانصاع لها أبواها لتعلُّقها الشديد بجدها، مسكينة «راحيل».

حضرت السيارة في فترة وجيزة، وقبل بَدء الطريق تأسّف السائق بأن الكاسيت لا يعمل ولن نستمع إلى القرآن، ارتدت «راحيل» فستانها الأسود فتذكّرتُ الكابوس الذي حكاه «باسل» فانقبض قلبي، وأكملت ضفيرتا «راحيل» السوداون السميكتان الطويلتان.. وأهدابهما الطويلة مع نظراتها الحادة هيئتها الغريبة، كانت صامتة كصنمٍ، لم تبكِ ولم تتعاطف مع أحد، كانت تنظر أمامها شاردة، تجيب أسئلتنا دون أن تلتفت إلينا، جلس بجانبها «إياد» واحتضنها باكيًا بعد أن فقد أعصابه أخيرًا، أما «سما» فدموعها كانت سيولًا وهي تمسك المصحف وتقرأ فيه، حاول «إيهاب» التخفيف عنها وسط انشغاله بالرد على عبارات العزاء على مواقع التواصل الاجتماعى، أما أنا فكنت أراقب الجميع بقلب متفتتٍ، أصغر قطعة فيه ترفض الواقع ولا تنكره في نفس الوقت، انتهى «إياد» من وصلة البكاء التي لم تتأثر بها «راحيل»، لا أتذكر أنني بكيت في جنازة قبل وفاة أمي، لكن بعدها كلما ذهبت لعزاء أو جنازة استرجعت المشهد وبكيت، فيظن الناس أنني أبكي فقيدَهم، لكن اليوم الصمت قد تملّكني تمامًا مثل «راحيل»، ربما بكيت لو مات أبي بشكل طبيعي، لكن ما يُسيطر على عقلي الآن هو الإنتقام ومعرفة الحقيقة، ربما أبكي بعدها على فراقه

كما بكيت على فراق أمي.

عندما وصلنا إلى المشرحة رأينا السيد «عبد الحكيم» صديق أبي يقف أمام الباب يبكي بزُفقة «باسل»، أخيرًا وجدت فائدة لمنشورات «إيهاب» و«إياد» التي لا تنتهي على وسائل التواصل الاجتماعى، لقد علم الجميع بميعاد الجنازة، اقترب «باسل» وفتح باب السيارة وقال:

- شدوا حيلكم، «إيهاب».. «إياد».. تعاليَا معي، «مورين» أرجوكِ لا داعي لوجود النساء بالداخل خلال إنهاء إجراءات الدفن.

وخلال مغادرة «إياد» و«إيهاب» السيارة أردفت بحسم:

- سنودّع أبي قبل الدفن يا «باسل»..

نظرت له «راحيل» بخُبث وابتسمت! وتوقف «باسل» عند تبسُمها وعيناه لا تُفارق عينيها وقال:

- حسنًا.. فقط انتظرن حتى أنادي عليكن لتودعن أباكم، اقرئي القرآن يا «سما» بصوت عالٍ.

لم تفهم «سما» مغزى ما قاله، لكن «راحيل» التفتت إلينا بملامح غاضبة وقالت بتحدٍّ بعد أن انصرف..

- لا داعٍ لذلك!

نظر «باسل» نظرة ذات معنًى وأشار بسبابته تأييدًا لي، ربما يؤكد اقتناعه بحديثي له سابقًا.

وبقيت مع «سما» و«راحيل» داخل السيارة بعد أن خرج السائق ليدخن سيجارته، كانت عينا «سما» معلقة بباب المشرحة، بينما كانت

«راحيل» تنظر للمصحف في يديها، فسألتها في هدوء..

- «راحيل» يا صغيرتي.. هل تذكرين الميدالية التي أعطيتها لـ«إياد» هدية؟

ابتسمت لي ابتسامة صفراء ثم فتحت قبضة يدها وقالت:

- تقصدين هذه؟

اندهشت وأردفت بسرعة:

- نعم.. من أين جئت بها؟

تجهّم وجهها وقالت بجدية لا تليق بطفلة:

- ليس لكِ شأن.

عندها أخذت المصحف من يد «سما» وفتحته على سورة «البقرة» وعندما شرعت في القراءة، نظرت إليّ فِي توعُّد وقالت بجدية أدهشت «سما»:

- أستطيع أن أقلب بكم جميعًا السيارة فتجتمعوا بأبيكم سريعًا.

نظرت إليّ «سما» مندهشة وقالت لابنتها:

- «راحيل»! ماذا تقولين؟ هل فقدتِ عقلك؟

التفتت نحوها «راحيل» في ثباتٍ وقالت بنبرة سيدة عجوز..

- اِخرسي أيتها المغفّلة، أنا لست ابنتك، إنكِ حتى لم تلحظي ذلك! إن ابنتك لن تعود.

وكأن صاعقة من السماء أصابتنى! هل هذه «راحيل»؟ لا لا.. إنها

ليست هي بالتأكيد.. يا إلهى، مرّت لحظات ثقيلة صادمة، ثم نظرت إلي سما وكانت لا تزال تحمل المصحف وتنظر إلى ابنتها ذاهلة.. نظرتْ إلى المصحف وكأنه يمدني بالقوة والثبات.

فنظرتْ إليها في ثقةٍ وتحدٍّ وقلت:

- أعِدكِ أنها ستعود، وأعدك أننى سأعرفك وسأقضي عليكِ.

عندها شهقت «سما» وهي تخفي فمها تحت كفيها، وقد جحظت عيناها، وهي تنقلهما في سرعة بيني وبين «راحيل» التي كانت تبتسم وتغنّي بلغةٍ لا نعلمها، قالت «سما» ودموعها تسيل:

- ماذا حدث لابنتي يا «مورين»؟

كانت «سما» في حالة فزع صريحٍ، وكُنت أتمنى أن أُجيبها وأشرح لها ما حدث، لكنني لا أفهم شيئًا، وببساطة ما أراه الآن كُنت أراه في أفلام الرعب فقط ولا أخاف، ولكنني الآن خائفة.. خائفة جدًا، وأفكر في قول أي شيء يُطمئنها ولو قليلًا، لكن وقبل أن أُجيبها أشار لنا «باسل» بالدخول إلى المشرحة لوداع أبي، وبسرعة انطلقت مع «سما»، وهذا الكائن الذي يتلبس «راحيل» إلى الداخل، وفي الممرّ استقبلنا «أحمد سليمان» أمام «غرفة الغُسل»، احتضن يدي قبل الدخول بتعاطف كبيرٍ وهو يتمتم:

- رحمه الله، وصبّر قلوبكم وأعانكم.

دخل «باسل» مع «سما»، وقال «إياد» وهو يخرُج من الممر إلى خارج المبنى برفقة «إيهاب»..

- سأنتظركم بالخارج..

نظر إليه «سليمان» باندهاش لم يُخفه، فتجاهلتْ «إياد» وأردفتْ في ثباتٍ عجيب لم أتوقعه:

- أخبرني ماذا قال لك أبي يا دكتور؟

نظر لي بدهشةٍ وشكٍّ؛ وسألني بنبرته الخافتة:

- باسل أخبركِ؟ لكن.. هل حقًّا تريدين أن تعلمي؟

- بلا شكٍّ..

زفر «سليمان» أنفاسه في ضيقٍ وقال:

- ولو أن هذا ليس الوقت المناسب لكنني أتفهم موقفك، هذا ما يقوله الطب الشرعي: لقد مات نزفًا.. لقد شق القاتل بطنه حيًا...

توقف «سليمان» عن الحديث عندما رأى دموعي التي سالت فجأة وقال:

- «مورين».. هناك آثار جلد تحت أظافر والدك، لقد كان يقاوم.

ثم نظر لي بشفقةٍ، وربّت على كتفي وهو يقول:

- سيدفع القاتل الثمن صدقيني.. لن أتركه.

أعطاني منديلًا ورقيًا وهو يقول:

- لا بد أن يترك القاتل شيئًا ويأخذ معه شيئًا من مسرح الجريمة.. لا توجد جريمة كاملة.

مسحتْ دموعي وأنا أقسم بداخلي أنني سأجد الجاني، دخلت برفقة «سليمان» إلى جثمان أبي، وعندما التففنا حولَ جثمان أبي

في الغرفة شممتُ رائحةً عطرة، وبدا لي كأنه يبتسِم، هكذا رأيته.. لقد أتموا مراسم الغُسل وربطوا لفة من الشاش حول الوجه، لم يبقَ إلا إغلاق الكفن تمامًا، اقتربت من أذنه وهمست:

- آن الأوان أن تستريحَ يا أبي ولا تقلق، سوف أبحث عن الحقيقة وأردّ حقك، الحق الذي فنيتَ عمرك تبحث عنه، وتدافع من أجله، لقد آن أوان رد الجميل.. أُحبك كثيرًا.

قبّلت جبينه ووجهه.. ثم ارتميتُ في أحضانه للمرة الأخيرة، مرة لم يستطع فيها ضمي بيديه كما كان يفعل، إن الألم يحفر في روحي أنهارًا تصبّ شلالاتها في كل الاتجاهات.

قال «سليمان»:

- لا بد أن نتحرك.

وتفاجئت أنه سيتحرك معنا! وبالفعلِ حمَل «سليمان» جثمان أبي مع «باسل» و«إياد» و«إيهاب» والعم «عبد الحكيم» على الأعناق حتى سيارة الموتى، وبعد أن دخلنا السيارة وتعقبنا سيارة الموتى متجهين إلى المقابر، أدركت أشياء كثيرة لم أفكّر بها إلى الآن، أدركت نعمة الوجود، إن وجود أبي وأمي في الحياة كان مصدر اطمئنانٍ وأمانٍ مهما كبرت، وانسابت دموعي وأنا أتابعه يسرع إلى مثواه الأخير ونسيت أمر «راحيل» لبُرهة من الوقت، عند مدخل المقابر استقبلنا «عارف» رافعًا سبابته وموحدًا لله، وعندما هبطنا من السيارة اقترب منّا وقال بتأثر..

- البقاء لله يا أستاذة.. كان الله في عونكم، أم وأب في وقتٍ

قصير، رحمهما الله برحمته الواسعة.

عند فتح باب المقبرة شعرت بأن أقدامي قد بُترت، سيجتمع شمل أبي وأمي من جديد بعد أن تركانا في هذه الدنيا التي نبحث فيها عن الحق والعدل، شاهدت التابوت يُفتح ليخرج منه جثمان أبي الذي عُذب وفقد أعضاءه.. وشُرّح ما تبقّى من جسده دون أسباب، ليدخل قبره ويستريح إلى الأبد.

أنهى عارفٌ مراسمَ الدفن حتى أغلق باب المقبرة من جديد وبدأ برش المياه حولها، ثم وقف يدعو لأبي ونحن لا نملك إلا أن نُؤمن خلفه، عسى الله أن يستجيب.

وهكذا استقبلنا العزاء عند المقابر تنفيذًا لوصية أبي، وجاءت «همسة» على عجلة من أمرها كالعادة، وكان «باسل» في شدة التأثُّر، ثم بدأ شيخٌ بقراءة القرآن ثم الدعاء أمام المقبرة، وبعد أن انتهى إبتسمت لي «راحيل» وهي تقف أمام المقبرة وقالت:

- لا يمكن الفرار من الموت.

لا أستطيع أن أصبر على «راحيل» وما حل بها، اقتربت من «همسة» وقلت بصوت خافت:

- أريد أن أذهب برفقة «راحيل» إلى الشيخ الذي حدّثني عنه «إياد» في أقرب وقتٍ.

نظرت «همسة» إلى «راحيل» بتفحص وقالت:

- لنفعل ذلك.. إن أمرها ليس بهينٍ.

***

بعد مرور عدة أيام كنت مع «إياد» و«همسة» و«راحيل» و«سما» و«إيهاب» و«باسل» أمام بيتنا في جاردن سيتى، سنتوجه إلى إحدى القرى بالقرب من الفيوم حيث يقع بيت «الشيخ حسن»، لقد استطاعت «همسة» أن تحجز ميعادًا معه؛ لأنه على حد قولها مشغول للغاية.

في الطريق كانت «سما» تقرأ القرآن وتدعو الله، بينما كان وجود «إيهاب» معدوم القيمة، أراه يحفظ ماء وجهه بمجيئه، فهو يرى أن «راحيل» تتعرض لضغوط نفسية إثر موت أبي وأمي، حتى إنه لم يصدّق «سما» حينما سردت له ما حدث في السيارة في يوم الجنازة، وقال إن أفلام الكارتون قد أثرت على سلوكها بشكلٍ كبير.

أما الأمر بيني وبين «إياد» فأصبح واضحًا كالشمس الساطعة، لقد استقل سيارة «همسة» وأخذ معه راحيل، واستقلت «سما» و«إيهاب» سيارتهما، وسألني ببساطة عندما هممت أن أجلس بجانب «راحيل» في المقعد الخلفي:

- هل ستذهبين مع «باسل» أم معنا؟

وقبل أن أجيبه كان ينظر إلى «باسل» شذرًا ويصيح في سخرية..

- «باسل» بيه.. إن «مورين» تفضّل أن تستقل سيارتك، هنيئًا لك!

عندها شعرت أنه ليس فقط شخصية غير مسئولة، بل ذكر بلا نخوةٍ، ويوجه اتهامًا بطريقة غير مباشرة في إشارة أنني على علاقة بـ«باسل»، فأجبته ببساطة ورددت الإتهام:

- حسنًا.. دعني أكون مع «باسل» كي لا أفسد وقتكما.

وقبل أن أغادر إلى سيارة «باسل» سمعت «راحيل» تغنّي بلغة غريبة ولا تنظر لأحد، تابعتني نظرات همسة وسمعتها تناديني وتلومه، لكني كنت قد استقليت سيارة «باسل» الذي نظر لـ«إياد» بدهشة وقال لي بجدية:

- يبدو أن الأمر مُعقد بينكما! وغيرته واضحة، لكن ما الذي جعله يَغار من وجودي؟

شغلني سؤال «باسل»، كيف يراني «إياد»؟ وهل أكن حقًا لـ«باسل» مشاعر؟ بالطبع لا.. إن الرجل متزوجٌ ولا أسمح لنفسي بإفساد علاقات أخرى، إن ما يشغل تفكيري كُلما رأيت «إياد» هل هو الشخص المناسب أم لا؟ لكن مُبالغته في هيئته وتصرفاته يجيبون سؤالي ببساطة، نظرت إلى «إياد» وقُلت لـ«باسل» بنبرة واثقة:

- لا تنشغل بأمره إنه مُنتهٍ.

أومأ «باسل» برأسه آسفًا، وانطلقت سيارته وسيارة «إيهاب» خلف سيارة «همسة»، ساد الصمت لبُرهة لكن العقول تعمل وكأنها خلية نحلٍ مشتعلة، ثم تغير الطريق وتبدل من شوارع رئيسية واسعة إلى شوارع ريفية ضيقة غير ممهدة وزراعات، وأخيرًا خرق «باسل» الصمت قائلًا..

- هل تعلمين أن «سليمان» عارض بشدة ذهابنا إلى هذا الشيخ؟ كما أنه تعجب لذهابي معكم، أصدقك القول أنا أيضًا أتعجب من أمري، فكرت كثيرًا فيما حدث لي ولم أجد تفسيرًا، وهذا سبب وجودي الآن

معكم.

لقد زال عن «باسل» اضطرابه، إن عقله يريد تفسيرًا مقنعًا وأدلة مادية كعادته، أردفت:

- تعلمث ألا أحكم على الكتاب من الغلاف.

أردفَ:

- الغلاف مهم لكنه أحيانًا يظلم المحتوى، أما أنا فأحب أن أقرأ نبذة عن الكتاب لأعلم الفكرة العامة، ولكنني الآن أريد أن أقرأه لأفهم ماذا يحدث! لذلك أنضم إليكم.

أخيرًا وصلنا، توقفنا أمام بيت ريفي مبنيّ بالطوب الأحمر من طابق واحد، أمامه بركة ماء ملوثة صغيرة، وعلى بُعد أمتار ترعة على جانبيها أكوام مُخلفات، كانت «راحيل» تنظر إلى البيت وتبتسم وتحملق في وجوهنا في غرابة! حينها شعرت بضيق في صدرى، خرجت «همسة» من سيارتها وأشارت لنا بالانتظار ثم دخلت البيت وغابت لدقائق، ثم عادت وأشارت لنا بالدخول فقلت لباسل:

- لا أريد أن أدخل.. أشعر أنني لست بخير.

قال «إياد» في سخرية وهو يتجه نحو البيت:

- لكنه أمر هام ولا بد منه، ثم إن «همسة» قد بذلت مجهودًا كبيرًا في هذا الأمر لمساعدتنا، فهل هذا رد الجميل؟

راقبه «باسل» مُتفحصًا وهو يدخل البيت ثم نظر إلي وقال في هدوء.د:

- هذا شعورٌ كاذب، دعينا نقرأ الكتاب ونحكُم.

دخل الجميع وكنت آخرهم، حرص «باسل» على سلامتي بعد ما رأى تصرفات «إياد» واهتمامه بـ«همسة»، لكنه كان اهتمامًا نابعًا من نخوة رجل، إن حدسي لا يكذب أبدًا، عبرنا بابًا صغيرًا حديديًا لونه أخضر باهت، لنقف وسط ساحة كبيرة في إحدى زواياها بئر مياه عليه كوب كبير معدني مربوط بحبل، تقدّمت سيدة مُتشحة بالسواد من «همسة» وتحدثت معها، إن هيئتها قذِرة وكأنها لم تغسل جلبابها أو تستحم منذ أشهر! ورأيت «همسة» تعطيها نقودًا ثم قالت باعتراض وهي تكتب في ورقة صغيرة أعطتها لها السيدة..

- أريد أن أراه هو شخصيًا، كيف يُغادر.. إننا لم نتأخر!

وعلمنا أن الشيخ حسن اضطر للخروج وأوكل زوجته بمقابلتنا.

تقدم «باسل» وسألها:

- ماذا كُنت تكتبين؟

- طلبت اسم «راحيل» واسم الأم والأب.

قال «باسل» بحسم:

- حسنًا.. لم نأتِ كل هذه المسافة لنعود من جديد، لنقابل زوجته ونسمع رأيها.

وقفت السيدة عند باب البيت وقالت آمرة:

- اخلعوا نِعالكم جميعًا قبل الدخول.

كان أول من خلع نعليه «إياد» فصحت قائلة بينما كان غرباء

يخلعون نعالهم قبل الدخول:

- أهذا مسجد لنخلع نعالنا؟

قالت السيدة بحزم:

- هذه أوامر الست «عفاف» وأنا أنفذها.

وقبل أن أجيبها أشار إليّ «باسل» بالصمت.. وهو يخلع نعليه وهمس:

- دعينا ننهِ هذا الفصل السيئ من الكتاب.

نظرت إلى السيدة شذرًا وفعلتُ ما قالت مُتأففة.. دخلنا إلى مكان خافت؟ الإضاءة، ظُليت جدرانه باللون الأزرق الغامق، رائحة المكان تدل على شدة القذارة.. الكثير من المخلفات والدوائر مرسومة باللون الأبيض على الجدران، وقفنا في ساحة تعج بنساء يجلسن على الأرض في انتظار دورهم!

هدوء مُقبض وهمهمات، ولا شيء غير غرفة مغلقة وبخور رائحته خانقة، ثم طرقة خلف ستارة مُتسخة! توقفت النساء عن الحديث وظللن يتأملننا لبُرهة من الوقت، ثم بدأ الهمس فيما بينهم واللمزات المستترة!

وقفت السيدة المُتشحة بالسواد خلف الباب المغلق الذي علمت أنه مصدر البخور الذي يتطاير من تحت عقب الباب، وفجأة سمعنا صراخًا لسيدة بالداخل وتمتمات عجيبة بصوت أجش أقرب إلى صوت رجل! احتضنت سما «راحيل» وكأنها تحميها، كانت في غاية القلق، وبدأت أندم على قدومنا، ولكن لماذا وافقوني جميعًا؟ ولماذا

أتى «باسل»؟ إن الشخص الوحيد الذي لم يفقد عقله هو «سليمان» الذي عارض مجيئنا.

وانفتح الباب فدخلت السيدة بسرعة، وبعد ثوانٍ خرجت من خلف بخور كثيف وهي تسند سيدة شابة وتسلمها إلى للسيدات المنتظرات معنا، ثم دخلت الغرفة وعادت فقالت..

- راحيل إيهاب..

تقدمت «سما» وأمامها «راحيل» بخطوات بطيئة لكنني قلت لـ«سما» بحسمٍ:

- سأدخل معكما لن أترك «راحيل» وحدها.

قالت «سما» في خوفٍ:

- لقد تلفت أعصابي لا تتركينا..

جاءنا من الغرفة صوت أجش لسيدة تقول..

- لا بأس.. ليدخلوا جميعًا بها.

كان صوتها كفيلًا بأن نتخيل ما نحن قادمون عليه، إنها مغامرة غير محسوبة العواقب، لكن مع هذه الأجواء الغريبة ظل «باسل» يراقب «إياد» خِلسة!

***

اخترقنا البخور الكثيف، ودخلنا الغرفة التي لم تختلف جدرانها عن الساحة، في منتصفها منضدة قصيرة فوق حصيرة وعليها مبخرة كبيرة، وتجلس أمامها سيدة عملاقة البنية الجسمانية، ترتدي جلبابًا

أسود وخمارًا أخضر، تضع الكثير من الكُحل فوق وتحت عينيها، ولا تضع أية مساحيق أخرى، وهذا جعلها حقًا مُخيفة، ترتدي ذهبًا كثيرًا! ولاحظت أن شحمتي أذنيها مقطوعتين، يبدو أن هذه المهنة تُدر أموالًا طائلة.

كانت السيدة تجلس على وسادة، وتُسند ظهرها على الحائط، وبجانبها زجاجات مياه مُعكره! تفحصتنا جميعًا بنظرات حادة ثم نظرت لـ«راحيل» وقالت دون أن تنظر إلينا:

- تفضلوا بالجلوس.

نظر الجميع إلى الأرض القذرة ولم يجلس أحد، قالت «همسة»:

- إن «راحيل» تعاني من..

أشارت لها السيدة «عفاف» بالسكوت وقالت:

- اقتربي يا راحيل..ابتسمت «راحيل» ابتسامة أثارت فضولي، واقتربت من الست «عفاف» في ثباتٍ، فتبادلا نظرات عجيبة بينهما، أشعلت الست «عفاف» البخور وضغطت على زر بجانبها فأتت مساعدتها مهرولة وبيدها طبق كبير به أشياء مختلفة لم أتبينها، أخرجت منه كيسًا من الملح، ثم قامت وبدأت برشه على الأرض لترسم دائرة كبيرة به، وأشعلت بعض الشموع الحمراء على حواف الدائرة، ثم أمسكت بيد «راحيل» وجعلتها تنام بداخل الدائرة، ووضعت يدها اليُمنى على رأس «راحيل» من خارج الدائرة وبدأت بقراءة القرآن، لكننا لم نسمع آية واحدة كاملة، إذ أن صوتها كان يرتفع وينخفض، لكني لا أظن ما قالته من كلام الله! فأغمضت

«راحيل» عينيها، والجميع ينظرون في ترقُّب لما يحدُث، ولم تُبد «راحيل» أي ردة فعل، كانت مستسلمة ومُنصاعة لها!

نظرت الست «عفاف» للسيدة المُساعدة وهي تقرأ فأعطتها قلمٌ وقصاصة ورق صغيرة، كتبت شيئًا عليها وطوتها عدةَ مرات ثم وضعتها على صدر «راحيل»، وظلت تتمتم بصوت خافت، وحينها فتحت «راحيل» عينيها فجأةً وظلت تنظر إلى السقف بخوف ثم صرخت وانتابتها تشنجات في كامل جسدها، اقتربنا منها على الفور فأشارت لنا الست «عفاف» بالابتعاد، كان المشهد مؤلمًا، وبدأت أؤنب نفسي أكثر على فعلتي هذه، لكن المفاجأة التي حدثت جعلتني أُعيد التفكير في الأمر بِرُمته.

لقد جلست «راحيل» مكانها بحركة آلية عجيبة وأمسكت بالقصاصة المطوية على صدرها ثم فتحتها وقرأتها! ثم نظرت إلى الست عفاف وضحِكت بصوت رجلٍ بالِغٍ وقالت:

- أيتها المغفّلة.. لا زلت لا تعلمين مَن أنا؟

حينها انطفأت الشموع بالكامل مرة واحدة.. رغم عدم وجود تيار هواء في الغرفة! فجحظت عينا الست «عفاف» ولم تُجبها وهى تتبين نظرات «راحيل»، وتحاول رسم القُوة على ملامحها، لكننا رأينا أذنيها تنزفان دمًا، وكذلك أنفها وهي لا تدرى، فقالت «راحيل» بصوت سيدة عجوز:

- أنا أُحذرك وآمرك بالابتعاد، فالوقت ينفد، ولا بد من إكمال المهمة..

وراحت «راحيل» تقطع القصاصة الورقية لقصاصات صغيرة وتلقيها واحدة تلوَ الأخرى في وجه الست «عفاف»، حينها قرأت «سما» القرآن بصوت عالٍ، فما كان من «راحيل» إلا أن التفتت إليها ورمقتها بغضبٍ، العجيب أن «سما» توقفت عن القراءة وأمسكت بحنجرتها وسعلت بشدة وكأن شيئًا أُلقي في حنجرتها فجحظت عيناها، خرج «إيهاب» من الغرفة مهرولًا ليأتي بالماء، فوقعت «سما» على الأرض من شدة السعال! وخشيت أن أفقدها كما فقدت أمي وأبي وبدأت أصرخ:

- سما.. ماذا أصابك؟

حينما أتى «إيهاب» بالمياه كان لون وجهها قد تحوّل إلى لون الدم! وقبل أن تشرب أخرجت من فمها ورقة! كانت الورقة إحدى القصاصات التي كانت بيد راحيل! كيف حدث هذا؟ لا نعرف ولا نفهم! بقيت الست «عفاف» تتمتم ولاحظت أن رعشة أصابت يدها، وهي تقول:

- أنتَ تخدعني.. لا يمكن أن تكون أنتَ.. أستطيع أن أسلط عليكَ من لا يرحم.

قاطعتها «راحيل» بنفس صوت السيدة:

- بدلًا من هذه الثرهات اعتنِ بزوجكِ الذي يخونك.. إنه معها الآن.

ثم ضحِكت بصوت مجنون؛ فتوقفت الست «عفاف» عن التمتمة وظهرت الصدمة على ملامحها، والنزيف من أذنيها وأنفها لا يتوقف، ثم ارتعشت «راحيل» وراحت في إغماءة على الفور وسط اندهاشنا

وارتباكنا وخوفنا، ولم أعلم كيف أُعالج «راحيل» التي باتت في حالٍ أسوأ لم أتخيل أن تصل إليه أبدًا، العجيب أن «إياد» قام واحتضن «راحيل» فوضع يده على رأسها وبدأ يتمتم بكلمات لم أسمعها، ففتحت عينيها وابتسمت له في هدوءٍ!

***

(١٢)

كنت بين النوم واليقظة عندما سمعت «راحيل» تدندن بلغة غريبة لحن أغرب، وشعرت بمياه تتسلل من تحتي! ثم بدأت تعلو شيئًا فشيئًا حتى غمرَت جسدِي بالكامل، وكأنني أغرق! وبدأت أتجمد مكاني وأرتعش، كان صوت دندنة «راحيل» يزداد ويصبح أعلى، حاولت كثيرًا أن أفتح عيني دون فائدة، وكأن هناك من أطبق يده عليهما! جاهدت كثيرًا ثم فتحت عيني بصعوبة فتفاجأت أن «راحيل» تجلس مُلتصقة بي وتتفحصني! انتفضت من مكاني مذعورة وسألتها:

- منذ متى وأنتِ هنا؟

توقفت عن الدندنة وقالت بهدوء وهي تُحدق بوجهي:

- أنا دائمًا هنا.

ثم قامت وخرجت من الباب دون أن تفتحه! لقد اخترقت الحاجز المادى! لقد رأيتها! هل كانت هذه راحيل؟ لا يمكن! أهكذا أصبحت الأمور في بيتنا؟

إن الحياة تزداد صعوبة والبراح ينقلب إلى ضيقٍ يكاد يطبق على صدري، إنني لا أشك أبدًا في وجود الله، ولا أشك في وجود الملائكة، ولا أشك أيضًا في وجود الشيطان وانتقامه من بني آدم، لكني لم أعُد أحتمل كل الضغوط التي أتعرض لها، فقد قررت اليوم الذهاب لمقابلة «إياد» في الإستوديو دون ميعادٍ، فقد أخبرني أنه يريد الانفصال عبر الهاتف، إلى أن نرتب ميعادًا ليكون الانفصال

رسميًا، فوددت لو أقصر المسافات ويكون ما نرجوه، ولكنني عندما دخلت الإستوديو ورأيته مع «همسة» في مكتبه يضحكان ويتهامسان، تذكرت كلمات «راحيل» عنهما «إنه يلهو مع «همسة» الآن في الإستوديو»! «راحيل» مرة أخرى!

رحبا بي ولاحظت أن «إياد» قد رسم وشمًا على يده مُطابقًا لوشم «همسة» تمامًا! بعد أن تركتنا «همسة» لنأخذ راحتنا على حدّ قولها، تحدثنا بمنتهى البرود عن فتور علاقتنا منذ فترة وحتى قبل موت أبي، ألمَح إلى اهتمام «باسل» وظهوره المفاجئ في العائلة، وأنه ربما كان سببًا في البعد، ثم قال:

- وها أنت تُسرعي في إنهاء الخطبة رسميًا بمجيئك، لم تستطيعي الانتظار؟ لكن في كل الأحوال هذا أفضل لنا.

ضحكت بسخرية؛ لأنه يُلقي باللوم على رغم أنه قد خلع دبلته بالفِعل، نظرت إلى بنصره وشردت قليلًا دون أن أجيبه، وخلعت دبلتي ووضعتها أمامه على المكتب مُردفة:

- كما قلت هذ أفضل لنا، ربما تسرعنا في قرار الخطبة، لم نكن لنصلح لبعضنا البعض على أية حال، أنت تريد حياة حرةً مع رسم الوشم والملابس العجيبة التي تفضلها، وأنا أريد حياة..

قاطعني بحسم..

- حياة نمطية.. لقد رسم عقلك صورة مُقولَبة عن الرجل.. أو ربما كان «باسل» نموذجك في الحياة!

قاطعته بدوري:

- لن أتحدث في اتهامات وثرهات، فلتسمها ما شئت، الحمد لله أننا لم نتقدم في مسألة الزواج، فأنت أسلوبك فظ عندما تغضب، وهذا ما لن أستطيع التعامل معه.

أخذ الدبلة ونظر إليها وقال وهو يبتسم بسخرية:

- كانت والدتك مُحقة.

لم أجِبه وهممت بالمغادرة فقال:

- «مورين».. لي عندك طلب أخير.. لا أريد أن أقطع صلتي بـ«راحيل»، تعلمين جيدًا أنني مُتعلق بها، أريد أن أطمئن عليها بين الحين والآخر، كما أنني لن أتركها في أي من المواقف بمفردها، سأرافقها أين ومتى كانت.

أردفت في برود:

- راحيل ليست ابنتى، لتطلب هذا الطلب من أبويها، فإنك صديق «إيهاب» ولن يرد لك طلبًا.

أخذ الدبلة ونظر إليها للحظات ثم ابتسم وألقاها في صندوق المهملات بجانبه، ثم نظر إلي قائلًا بملامح لم أستطِع قراءتها..

- حسنًا.. لا أريد منكِ شيئًا، سأتولي أنا أمر رؤية «راحيل».

***

كانت مواجهة قصيرة لا تليق بإنهاء قصتنا، لقد ظننت علاقتنا أكبر وأعمق، وظننت أنني أحبه أكثر، لكنني لم أتأثر حقًا، لقد أعطيته مكانة أكبر من مكانته الحقيقية، العجيب أن «باسل» بارك لي بعد

الانفصال قائلًا:

- منذ أن رأيته تعجبت لارتباطكما؛ أنتِ مختلفة عنه تمامًا يا «مورين»، ثم.. ألم تشكِ أبدًا أنه على علاقة بـ«همسة»؟ إن الأمر واضح كالشمس!

ولم يوضح تفاصيل أكثر لأنه يعلم أنني أفهم مقصده، ورغم ارتياحي الشديد لانفصالي عن «إياد» إلا أنني أجهش بالبكاء في سجودي كلما أتذكر تلك الليلة في هذا البيت الريفي المريب، خاصة بعدما علمنا من «همسة» أنها علمت أن الشيخ زوج الست «عفاف» قد تزوج بالفعل! وبدافع الفضول أردت أن أعلم هل كان «إياد» يلهو مع «همسة»؟ لكنني تغاضيت عن هذا عندما علمت من «باسل» ما قالته له الست عفاف عبر الهاتف..

- في البداية ظننت الحالة سهلة أستطيع السيطرة عليها، لكن عند مقابلته علمت أنني لن أقدر عليه بمفردي، إنه من أقوى أنواع الجن وأكثرهم شرًا! وحيث إنني انفصلت عن زوجي بشكل دائم؛ فإني أعتذر منكم فلن أستطيع مساعدة هذه الطفلة المسكينة.

كان هذا كافيًا لجعل عقولنا تطير خوفًا على «راحيل»، ومنذ تلك اللحظة اللعينة التي اكتشفنا أن «راحيل» متلبسة بأحد أفراد الجن لم تعد «راحيل» أبدًا، لقد أصبحت الأمور علنية وليست مستترة، لكننا لا نعلم ماذا نفعل؟ أو كيف نحتويها؟ إذ إننا تحدثنا إلى الطبيب النفسي الذي لامنا بشدة على لجوئنا لمشعوذة، تركته يتحدث كما يشاء فهو لا يعيش تجربتنا، ثم أصبحت الأمور أسوأ في البيت، إذ إننا كلما سمعنا القرآن الكريم عبر جهاز تلفزيون أو راديو، تصرخ

«راحيل» بشدة ثم لا يعمل الجهاز مرة أخرى!

بعد أن تحممت خرجت على صوت «سما» المُحبط تدعوني للفطور، وعلى المائدة بدت «راحيل» في حالٍ معقول، وعلمت أنها و«راحيل» ستذهبان لقضاء بعض المشاوير؛ لأن «إيهاب» مُنشغل في عمله كثيرًا، وأنهما ستعودان في المساء، وشجعتني كي أستغل الفرصة وأسجل الفيديوهات التي توقفت منذ اختفاء أبي إلى الآن، وبالفعل عمِلت بنصيحتها وكانت فرصة جيدة لأصرف عقلي ولو ساعات قليلة عن التفكير، لكنني تلكأت كثيرًا حتى أعددت التحضيرات اللازمة، لقد كنت مُنهكة وأردت أن أقضي بعض الوقت في فعل لا شيء، لكن وقت المغرب أوشك أن يحل، فقمت وتجهزت ونظرت للكاميرا بوجه باهت يحاول أن يبقَى على ظهر الحياة وقلت:

- أحبائي أهلا بكم، إجابة على رسالة لإحدى المتابعات تستفسر عن قائمة المنقولات الزوجية، أقول لكِ: أيا كانت وسيلة الطلاق أو الانفصال سواء كانت طلاقًا أو تطليقًا أو خُلعًا أو حتى انفصالًا جسمانيًا فهي منفصلة تمامًا عن قائمة المنقولات الزوجية، بمعنى أنه من حقك أن تُطالبي بقائمة المنقولات الزوجية في كل الأحوال، وبكل الوسائل التي تنفصلين بها عن زوجك، هذه الوسيلة لا تؤثر على حقك في المطالبة بقائمة المنقولات، لكن من الممكن أن تؤثر على حقوقك الأخرى، مثل حقك في نفقة العدة وحقك في نفقة المتعة وحقك في المؤخر، لكن حقك في قائمة المنقولات دائمًا وأبدًا محفوظ لكِ.

وقبل أن أسترسل، رنّ هاتفي فأغلقت الكاميرا، إنه باسل، أجبته وقبل أن أتفوه قال بسرعة:

- هل «راحيل» عندك؟

- لا..

- لا بد أن أراكِ الآن.

- ماذا حدَث؟

***

(١٣)

اليوم بعد الغداء كُنت أستريح في غرفتي قبل أن أصحو لأواصل عملي في المساء كعادتى، وبينما تراودني أفكار مختلطة حدث شيء عجيب، بل أشياء... رياح قوية دخلت الغرفة فجأة وأغلقت الباب بعنفٍ! أول شيء فعلته هو تفقد الشباك لكنه كان مغلقًا! كيف يُغلق الباب بهذه القوة ومن أين أتت الرياح القوية؟ وقبل أن يعمل عقلي ظهر رجلٌ فجأة من العدم عند الباب، ونظر نحوي، حينها لم تتحدد ملامحه بعد، كان مثل شبح أو طيفٍ، حسنًا.. لن أصطنع الشجاعة أمامك، كان الموقف صعبًا وعجيبًا وشعرت بأنني ضعيف؛ ضعيف جدًا، وأنني تائه بداخل عقلى، هل ما أراه صحيح؟ جلست مكاني وقبل أن أمد يدي لأضيء الأباجورة أضائت من تِلقاء نفسها، بسملت وأنا أتجه ببصري نحو الرجل.. فإذا به يقف أمامي مباشرة ويقول لي: «أنا أعتمِد عليك في كشف الحقائق.. انقذ أهلي مما حل بهم، أعلم أنني أخطأت»، وحينها اتضحت ملامحه!

هممت أن أسأله من هو الرجل فقال في انفعال..

- لقد كان عمّي «هاشم» يا «مورين»... أباكِ! لم يكن خلقًا ما رأيته.. أكاد أجن، لا أخف عليكِ عقلي لا يصدق كل ما رأيته أمامي مع راحيل، ينكره ويستبدله بأسباب وتحليل منطقي، ذهني مشتت ما بين وجود الجن الذي لا أنكره، وبين التواصل معه عبر جسد فتاة صغيرة لم ترتكب حماقة في حياتها لترى كل هذا العذاب!

أجهشت بالبكاء أمام «باسل» بعد كل ما قاله أمامي في البيت، حاول أن يهدئني بلا فائدة، إنني أفتقد أبي وأمي، أفتقد كل دقيقة

معهما، كل إيماءة، أفتقد أصواتهما وأنفاسهما، قام «باسل» إلى المطبخ ليحضر لي كوبًا من الماء، شربته وجففت دموعي لأجد وجه «باسل» مُحتقن بالدماء وعينيه مُوقدة فجأة، همس قائلًا:

- ألم تخبريني بأن «راحيل» ليست هنا؟

- نعم.. إنها مع «سما» بالخارج.

التفت نحو المطبخ وهمَس..

- إنه في المطبخ.. لا بد أن نخرج الآن من هنا..

- هل نعود للشيخ زوج الست «عفاف»؟

- لا أعلم.. إنني مشوش الذهن الآن، لم أصادف أحداثًا بهذه الغرابة، كنت أسخر من هذه الروايات في القضايا! أما الآن..

قاطعته وأنا في شدة التوتر:

- برأيك ماذا علي أن أفعل؟ لن أترك بيتي الذي عشت فيه عُمري كله وورثته عن أبي وأمي!

- بالطبع لا.. لكننا نستطيع أن نفهم بعض الأمور إذا إستنخدمنا كاميرات مُراقبة، فقد أصبح الأمر لا يحتمل!

هممت أن أتفقد المطبخ لكن رنّ هاتفي وكانت «سما» فأجبتها على الفور، قالت وهي تصرخ:

- «مورين».. لقد فقدت «راحيل»، كنا في محل ألعاب كبير، لم أنشغل عنها صدقيني، استغرق الأمر دقائق قليلة لتختفي عن نظري، أبلغت الأمن واتخذوا كل الإجراءات لايجادها لكنها لم تظهر.

سمع «باسل» كل حديثها وأخذ الهاتف مني فقال لها..

- «سما».. معك «باسل»، من فضلك انتظرينا في المكان سنأتي في الحال، فقط أرسلي مكانك.

ثم نظر إليّ وأنا أتجه إلى المطبخ وقال:

- لن تجديها.. إنها ليست هي لا تتعبي نفسك.

وبالفعل كان المطبخ خاويًا، لم نستغرق دقائق لنجلس في سيارته متجهين إلى «سما»، لكن رن هاتف «باسل» في الطريق وسمعته يقول مندهشًا:

- سنأتي في الحال.

نظر إليّ وأجاب تساؤلات عيني وأردف باضطراب..

- لقد وجد «سليمان» «راحيل» عنده في المشرحة!

أردفت بصوت عالٍ..

- ماذا؟!

قال بصوت خافت:

- أمر عجيب! أخبري «سما» أن تعود إلى البيت وطمئنيها بأننا سنُحضر راحيل.

بعدما فعلت بقيت صامتة أشاهد الطريق، ماذا علي أن أفعل في هذه الظروف التي لا أعلم لها نهاية؟ وكيف أتعامل مع عالم آخر يُطل علينا من داخل أحبّ الناس إلى قلبي؟! والسؤال الأهم.. لماذا؟

وكيف؟

وصلنا المشرحة ودلفنا إلى الداخل، وسيطرت الذكريات الحزينة على رأسي، وشعرت أن قلبي يرتجف بداخلي، استقبلنا «سليمان» في الطرقة بملامح واجمة، وأدخلنا إلى مكتبه فوجدنا «راحيل» نائمة على كنبة جلدية، تفقدتها وأنا أبكي فأمسك «سليمان» بيدي وأجلسني على كرسي أمام مكتبه وجلس «باسل» أمامي وهو ينظر إلى «راحيل» بشفقة ويسأل «سليمان»:

- كيف أتت بمفردها؟

نظر لي «سليمان» وقال..

- هذا ما لم أعلمه، لقد وجدتها في غُرفة التشريح.. تحديدًا تحت طاولة التشريح، وبينما أعمل على تشريح إحدى الجثث! سمِعت صوتًا يقول:

- أنقذونى.. إنه لا يحبني وسوف يأخُذني.

أردفث وقد انخلع قلبي..

- من؟

قال «سليمان» مُتحيرًا..

- لا أدري! لكنها كانت تمسك بدميتها وبدت وكأنها تختبئ من شخص أو شيء، وفي الغرفة التي كان بها جدها رحمه الله!

أردفت قلقة..

- أنا لا أصدق ما يحدث، كيف جاءت؟ ومن تقصِد؟

قال «سليمان» حائرًا:

- بعد أن احتضنتها وطمأنتها كأن وعيها قد رُد إليها، في البداية قالت إنها أتت لتقابل جدها! وبدت خائفة بشكلٍ لم أره في حياتي، ثم بدأت في البكاء فهدئتها، فنظرت حولها مُندهشة وسألتني ما الذي جاء بها إلى هنا؟ ثم أجشهت في البكاء من جديد! لكني موقنٌ أنها تريد أن تخبرنا بشيءٍ.

قال باسل..

- لا أستطيع فهم شيء مما تقول أو مما يحدث! لكن.. لا أدرى.. ربما.

أردفت:

- أفصح عما تفكر فيه.

أردف «باسل» بثقة:

- سأصارحك بشيء لم أكن لأفعله من قبل، لكنني أشك في «إياد»، لا أعلم لماذا! ليس هناك دليل قاطعٌ على إيذاءه «راحيل» لكنه مجرد شعور داخلى، بتّ أميل إلى الذهاب إلى الشيخ حسن مرة أخرى فربما نعلم الحقيقة.

قال «سليمان»:

- أنا لا أؤيدك بالمرة في هذا الأمر..هؤلاء المشعوذون لا يفعلون شيئًا سوى جلب الشر لمزيد من الأموال، سيزيدون الوضع سوءً كما فعلت الست «عفاف».

أردفت في ثقة..

- صحيح أنني على خلاف مع «إياد» لكنه لن يؤذي «راحيل» أبدًا، إنه يعتبرها ابنته.. لا يمكن لهذا أن يحدثَ.

كانت عينا «باسل» تتحدث دون أن ينطق لسانه فقال:

- لكن الوضع سيء بالفعل، لقد مررت بأشياء لم أكن لأصدق حدوثها أبدًا وحدثت!

جاءتني رسالة من «إياد» على الهاتف «ماذا حدث لـ«راحيل»؟ أريد أن أطمئن»، فقرأتها بصوتٍ عالٍ، لقد علم من «إيهاب» بالطبع، فقال «باسل» وكأنه وصل لحل اللغز في حماس..

- ادعوه لرؤيتها في بيتك الليلة.

اندهشت من حديثه وقلت..

- ثم ماذا؟

- سأكون معك وسنرى معًا.

قال «سليمان»:

هل أستطيع الانضمام لكما الليلة؟

أردفت وباسل معًا:

- بالطبع.

نفذت ما أراده «باسل» بغير اقتناع، لكنني تذكرت ما علمته عن «سليمان» فنظرت إليه أتمنى أن يقول شيئًا جديدًا فسألته:

- سليمان.. هل رأيت شيئًا عن «راحيل» بشكل عام؟

- أنا لست بساحر، إن الأمر معقد، وليس بهذه البساطة، إن الرؤي لا تحدث عبثًا.. وإذا حدثت فهي لسبب، لكنه حدث مع «راحيل» اليوم.

أردفت بلهفة:

- ماذا رأيت؟

توقف للحظات ثم عاد ببصره إلى باس:

- كل ما أستطيع قوله.. إن عملك يا «باسل» يبدأ وينتهي حيث وجدت جثمان السيد «هاشم»، إنني أرى جبل المقطم أمامي في لقطات مُتفرقة منذ أن رأيت «راحيل» اليوم، المكان أشبه بكهف.. أو مغارة.. استَقصِ الأمر جيدًا.

عندها فاجأتنا «راحيل» وهي تجلس على الكنبة الجلدية وتقول مُحذِّرة بصوتِ إمرأة عجوز أجش:

- ستكون العاقبة وخيمة إذا ما ذهبتم.. لا بد من إكمال المهمة.

***

(١٤)

في المساء حضر «باسل» و«سليمان» وجلسنا نحتسي القهوة في الصالون قبل ميعاد إياد، كانت «راحيل» لا زالت نائمة، قال «سليمان»..

- هل حدث شيء غير عادي آخر؟

- لا..

قال باسل..

- هل أخبرتها بقدوم «إياد» لرؤيتها؟

- نعم وقد فرِحت كثيرًا.

قال «باسل» وهو يُخرج من جيبه كيسًا شفافًا به شيء أبيض، قال وهو يُشير إليه وينحّي القهوة جانبًا:

- لقد اتصلت بي السيدة «عفاف» وأرادت مقابلتي.

أردف «سليمان» في عصبية..

- لماذا؟ هل تثق في هؤلاء المشعوذين؟

- لا أثق فيهم ولا أصدّقهم لكن ما قالته أثار فضولي.

أردفت:

- وماذا قالت؟

- تشك أن بيننا ساحِرًا وأعطتني ذلك المسحوق لمعرفته.

كان المسحوق بداخل الكيس يشبه المِلح، قام «باسل» من مكانه ورش المسحوق على عتبة الصالون ثم نظر نحونا وقال:

- قالت: إن الساحرَ لن يستطيع تخطّي هذا المسحوق، وإذا فعل سيؤذى.

ابتسم «سليمان» وقال:

- «باسل».. هل فقدت عقلك؟

قال «باسل» بجدية..

- إنني أستخدم كل ما لدي لأعلم الحقيقة، لقد فقدتُ عقلي بما رأيته بالفعل، إذا كان ما أتعامل معه غير مرئي فأنا مُجبر على استخدام هذه الحيل، على العموم سنرى..

هز «سليمان» رأسه في سخرية قائلًا..

- هذا يعني أن «إياد» لن يستطيعَ تخطي هذا المسحوق؟ حسنًا دعنا نرَ ما سيحدث!

عندها رن جرس الباب، لقد رأيت خيال «إياد» خلف الشراعة الزجاجية طويل جدًا! ربما كان انعكاس الضوء، عندما فتحت الباب ابتسم «إياد» في وداعة وهو يُعطيني صندوقًا من الحلويات وقال:

- كيف الحال؟

رحبت به ودعوته للداخل، العجيب أنه لم ينزعج عند رؤية «باسل» و«سليمان» بالداخل، بل اكتفى بقوله:

- أتمنى ألا أزعجكم بزيارتى.. هل آتِي في وقت لاحق؟

رأيته يرجع خطوة للوراء فأردفت قائلة في لطف..

- لا لا أبدًا.. البيت بيتك.

ابتسم ورأيت في عينيه ودًّا يحاول دفنه فأردفت:

- لقد فرحت «راحيل» جدًّا بزيارتك.

نظر مرة أخرى بالداخل وقال:

- وأين هي؟

أشرت له بالدخول مُرحبة مرة أخرى:

- تفضل بالداخل؛ وسآتي بها حالًا.

ابتسم «إياد» وبدأ يخطو نحو الصالون، وقلبي يخفق، ورغم كل اختلافي معه فإنني تمنيت ألا يكون هو الساحر كما تقول الست «عفاف»، لا أعلم لماذا استغرق وقتًا طويلًا ليصل إلى باب الصالون، ولكنه توقف عند عتبته وقال:

- «باسل» بيه والدكتور «سليمان».. أهلًا وسهلًا.

لأول مرة منذ أن تعرفت على «إياد» لا أفهمه، هل يسخر منهم أم يحييهم أم يَغار؟ لا أعلم، إن نبرته تحمل كل المعانى! وقف «باسل» و«سليمان» لتحيته فقال «إياد» وهو لم يتخطّ الباب..

- دعني أشكرك يا دكتور على ما فعلته اليوم مع «راحيل»، أقدر لك هذا.

- اندهش «سليمان» ونظر إلي وقال:

- لا شكر على واجب!

قال باسل:

- تفضل معنا القهوة، أتمنى أنك لا تحمل شعورًا سيئًا تجاهي، إن ما تفكر فيه ما هو إلا..

قاطعه «إياد»:

- صدقني لا أحمل تجاه أحد شيئًا، لا داعي لما ستقوله ولا تفكّر به.

مرت لحظات صمت بيننا جميعًا، وشعرت أننا ظلمناه وأننا جميعًا نشعر أحيانًا بمشاعر مختلطة أو غير صحيحة، فتقودنا مشاعرنا إلى طريق لا نستطيع الرجوع منه، نظر «إياد» إلي وقال:

- من فضلك أريد رؤية «راحيل» لأنني على عجلة من أمري.

أومأت بالموافقة، وحينها دخل «إياد» الصالون وتخطى الباب بشكل طبيعي، جلس أمام «باسل» و«سليمان» ووضع ساقًا على ساقٍ وقال:

- أتمنى أن تكون أموركما طيبة.

حينها ذهبت لإحضار «راحيل» من غرفة النوم ورأسي يشتعل، إن ما ظننناه به خطأ، أو ربما أن هذا المسحوق لا شيء من الأساس، وانتابني الشك في قرار انفصالي عنه، هل كنت على صواب؟

حينما دخلت الغرفة وجدت «راحيل» جالسة تنتظرني، مُرتدية فستانها الأسود الذي ابتاعه لها «إياد» وتحمل دُميتها، يقول الطبيب النفسي أن سرّ تعلقها بالدمية هو شعور الفقد، فهي ترى الأمان فيها،

كانت وديعة كالملائكة، ما إن رأتني حتى قامت وضمّتني بقوةٍ وقالت في فرحة:

- هل حضر إياد؟

نظرت إليها في حيرة وقلت:

- و«باسل» و«سليمان» أيضًا..

تركتني وهرولت نحو الصالون وأنا وراءها، لكنها ألقت بالدمية قبل دخولها الصالون! لا أدري هل ألقتها عن عمدٍ أم سقطت من يدها؟ كانوا يتحدثون بصوت خافتٍ، أو ربما بُهت «باسل» لما رأى خطأ توقعه، لكني سمعت صوت «إياد» يصيح:

- رااااحيل حبيبتي.. اشتقت إليكِ.

فقلت بصوت عالٍ:

- ثوانٍ معدودة وسآتيك بالقهوة يا «إياد».

سمعت صوته:

- لا داعي.. لن أمكث كثيرًا..

حينها سمعت «باسل» ينادي باندهاش..

- مورين..

ذهبت إلى الصالون فوجدت «راحيل» تقف على عتبة الباب وتنظر إليه في تحدٍّ و«إياد» قد وقف وفتح ذراعيه ليحتضنها لكنها لا تتحرك من مكانها، أما «باسل» و«سليمان» فكانا يقفان وينظران

إليها في ترقُّب، أردتُ ألا أثير شكوك «راحيل» أو هذا الكائن فقلت للجميع:

- تفضلوا بالجلوس.. خذوا راحتكم..

نظرت إلي «راحيل» وابتسمت ووجّهت حديثها لـ«باسل» الذي كان وشك الجلوس..

- لا تجلس هنا.. فإن جدّي يرتاح قليلًا.

نظر الجميع إليها في دهشة ولم يعلق أحدٌ! صدمني ما حدَث، ولم أعرف هل أسألها أم لا فقلت؟

- راحيل.. لماذا لا تدخُلين؟

نظرت «راحيل» لباسل في توعّد ثم ابتسمت وقالت لـ«إياد»..

- اشتقتُ إليك أيضًا، لكنني لن أدخل الآن.. سأنتظرُ لقاءنا قريبًا!

لاحت الدهشة على وجوه الجميع وبدا «إياد» مُحتارًا في تفسير ما قالته «راحيل»!

***

(١٥)

نحن بني آدم لا نتعلم إلا بالألم، لم أجد أحدًا يتعلم في أوقات الرفاهية والأمان، إن الألم أكبر مُعلم في التاريخ، وها أنا ألقي بنفسي داخل كرة ثلجٍ من الألم، تتدحرج لتجمع الكثير من الألم في طريقها، إن ما رأيته بداخل الكاميرات عجيب، بعد أن أخذت نصيحة «باسل» على محمل الجد واستخدمت كاميرا للمراقبة.

كُنت أراجع تسجيل الكاميرا في غُرفة النوم، وإذا بي أرى شيئًا لم يكن لِيخطر ببالي أبدًا، إنه طيفٌ أسود يظهر من العدم في الثالثة فجرًا ثم يقترب من «راحيل»، فتستيقظ وتجلس في فراشها تتحدّث إليه بلغة غريبة! وعندما يختفي هذا الطيف تقوم من مكانها، وتثبت وجهها في الحائط! ثم تبدأ في الاهتزاز إلى الأمام، وإلى الوراء مرارًا وتغنى لحن مُقبض بنفس اللغة الغريبة! ثم تشهَق صارخة فتتجمّد مكانها وكأنها تحنطت فجأة! وبعد قليل تعود أدراجها إلى الفراش وتغط في نوم عميق وكأنها لم تستيقظ أبدًا!!

لم يتعجب «باسل» أو «سليمان» عندما روَيت لهما ما سجّلته الكاميرا، وقال «باسل» إنه يرى «راحيل» في أحلامه ترشده نحو مسرح الجريمة، وهذا يؤكد صحة تخمين «سليمان»، لقد بات «باسل» يصدّق أمورًا لم يُقم لها وزنًا من قبل، لكن لم يكن من السهل أبدًا إقناعه بمرافقته إلى مسرح الجريمة، لكنه وافق بعد إلحاحٍ كبير وظل يؤنبني طِيلة الطريق، أردت أن أرى أين وجدوا جثمان أبي، أليس من حقي أن أرى بعيون أبي ما رآه في لحظاته الأخيرة؟ لعل روحه ترشدني إلى دليل أو علامة، وفرحتُ عندما علمت أن

«سليمان» أصر على مرافقتنا.

عندما وصلنا إلى منطقة المقطم، وفي مكان ناءٍ أوقف «باسل» السيارة، ثم أرسل تحديد المكان على الخريطة لـ«سليمان» عبر تطبيق «واتس آب»، التفت إليّ وقال بشكٍّ..

- هل أنتِ حقًا مُستعدة لمثل هذه التجربة؟

لقد حسبت نفسي أكثر قوة، لكن الموقف أثبت ضعفي مثل قشة تتقاذفها الرياح، أومأت بالإيجاب واجمة؛ فأجابني بإيماءة ممثالة وهو يشير لنخرج من السيارة، تقدم بضعة أمتار، وسِرت خلفه وأنا أنظر في كل الاتجاهات، ما الذي جاء بك إلى هنا يا أبي؟ وخطر خاطر في بالي فصحت قائلة..

- هل يوجد هنا مكان للخَلوة؟ لقد تحدّث أبي عن خلوة في المقطم.

نظر «باسل» حوله مُتفحصًا وقال:

- لقد حدثني عنها من قبل لكنه أشار إلى مسجد في المقطم ولم يقصد الجبل نفسه، لا بد أن أحد استدرجه إلى هنا.

أردفت بحُرقة:

- ولماذا يقتله؟ وبهذه الطريقة البشعة!

- لا تنسَي أن أباكِ كان من أشهر المحامين في مصر، وبالتأكيد له أعداء من المجرمين لا نعلم عنهم شيئًا، إن العالم ملئ بالمرضى النفسيين.

عندها رأيت سيارة «سليمان» تقترب ببطءٍ، وبعد دقائق انضم إلينا وهو يتفحص المكان تمامًا مثل «باسل»، صافحنا وخصّني بالحديثِ مُتحفظًا..

- لم يكن حضورك ضروريًا يا «مورين»، خاصة في مكان كهذا.

أردف «باسل» على الفور:

- لم أستطع أن أثنيها عن إصرارها.. إنها عنيدة.

قال «سليمان» وهو ينظر للأرض حوله:

- لنبدأ البحث الآن، أعتقد أن هذا ليس المكان.

قال باسل:

- هو كذلك.. إن مسرح الجريمة على بعد أمتار قليلة من هنا.

قال «سليمان» وهو ينظر إلى شابٍّ تبدو هيئته كالمجرمين، يسير في الجهة المقابلة وينظر إلينا مُتفحصًا..

- نحتاج إلى من يدلنا إلى مغارةٍ قريبة من مسرح الجريمة.

على الفور اتجهنا نحو الشاب الذي بدأ يُسرع الخُطَى عندما لاحظ إقبالنا عليه، استوقفه «باسل» وسأله:

- السلام عليكم.. هل أنت من سكان المنطقة؟

نظر الشاب إلينا وكأن عينيه جهاز ماسح أشعة وقال متجهمًا لـ«باسل»:

- ماذا تريد؟

أردف «سليمان»:

- نبحث عن كهفٍ.. أو مغارة قريبةٍ من...

قاطع الشاب «سليمان» بحسم..

- لا أعلم.

حينها اقترب «باسل» منه وقال حاسمًا:

- الرائد «باسل» غُنيم مباحث المقطم.

زاغت عين الشاب وهو يقول:

- أؤمر يا باشا.

قال «باسل» بنبرة آمرة:

- كما سمعت.. هل تعلم مكان مغارة قريبة من هنا؟

تلفت الشاب حوله وقال بصوت خافت:

- هناك مغارة قريبة..

قال «سليمان»:

- هل من الممكن أن تصحبنا إليها؟

تلفّت الشاب مرة أخرى ولكن هذه المرة بصورة مُبالغ فيها وقال بصوت أكثر خفوتًا..

- أستطيع أن أصطحبكم إلى أقرب مكان من المغارة، لكن.. ليس مسموح لي بالاقتراب!

نظر له «باسل» بشك وقال:

- ومن الذي يسمح أو يمنع؟

أردف الشاب:

- «سلامٌ قولًا من رب رحيم»، هذه المغارة قديمة و.. ومسكونة، لا يدخلها إلا السحرة، ودخولها في حد ذاته أذًى كبير، أنصحكم بالابتعاد عنها يا باشا.

ثم اقترب من «باسل» وقال:

- حتى أفراد الشرطة يتجنبونها، وإذا حدث فلا بد أن يكون في وضَح النهار.

نظر «سليمان» إلى «باسل» وأردف:

- لنتحرك حتى لا يضيع الوقت.

بعد قليل كنا قد بلغنا مسرح الجريمة، اقشعر جسدي حين رأيت بقع دماء لا زالت على الأرض، بدأت أبكي فحاول «سليمان» تهدئتي، بينما كان «باسل» مُنشغلًا بأي دليل قد يُرشده في تحرياته، بعد بُرهة صغيرة، وقف الشاب وأشار إلى مغارة فوق تبّة عالية أمامنا على بُعد أمتار وقال:

- هذه هي المغارة يا باشا، سامحني لن أقترب أكثر.

قال باسل:

- هل هناك غيرها؟

- لا.. كدت أنسى.. إذا حل عليكم الليل هنا ورأيتم ذئاب لا تقتلوها.

قالها الشابُ وعيناه معلقتان على المغارة وغادر بعدها مُسرعا، قال «باسل» لـ«سليمان»:

- أفضّل أن أذهب أنا أولًا لأتفقدها، بينما تظل أنت مع «مورين» هنا.

قال «سليمان»:

- لم أحضر لأبقى مع «مورين»، جئت لأساعدك في الأمر لربما رأيت ما لا تراه.انفجرت حينها قائلة..

- أنتما تقرران بقائي من عدمه حتّى دونَ استشارتى؟!!

زفَر «باسل» في استسلام وقال:

- لنذهب جميعًا إذن..

وبدأنا رحلة صعود التبة، بدت بعيدة، لكننا قطعنا الطريق في وقت أحسبه طويلًا، فقد كانت خطواتنا ثقيلة جدًا، وانتابنا التعب فجأة، كان «باسل» مقدامًا لكن «سليمان» غلب عليه الحذَر، عندما اقتربنا من المغارة؛ هبّت رائحة نتنة وكأنها تُحذرنا من الاقتراب أكثر كما قال الشابّ، ورغم أننا كتمنا أنفاسَنا بتلقائيةٍ، إلا أننا اقتربنا حتى توقفنا عند باب المغارة، ولم نَعُد نرى شيئًا، فقد غلب الظلام بداخلها على كل شيء، أضاء «باسل» هاتفه المحمول بداخل الظلام، قال «سليمان» بصوت عالٍ وهو يخطو أول خطواته بداخل المغارة..

- بسم الله الرحمن الرحيم.. السلام عليكم ورحمة الله.

ثم نظر لـ«باسل» الذي كرر ما فعله «سليمان»، ودخل وراءه وقد فعلت تمامًا مثلهما، ويالعجب ما رأينا، لقد كان المشهد مُروعًا وكئيبًا ومُقززًا..

الرائحة كريهة والذباب يملأ المكان، كثير من الطلاسم والنقوش على الجُدران، لكن ليس هذا ما استوقفنا، لقد كانت هناك ملاءات قذرة على الأرض عليها بقع من الدماء القديمة والطازجة وبقايا طعام! ثم علبتان زجاجيتان إحدهما بها قلبٌ والآخرى بها مخٌ! تفحصهما «سليمان»، وأكد أنهما لبشر! ثم دولاب صغير مغلق بقُفل من الخارج، قرأ «سليمان» آيات قرآنية بصوت عالٍ ثم التفت وأشار إلينا لنتبعه إلى الداخل عبر مُنحنًى ضيقٍ قادنا إلى الأسوأ!

اختل توازني عندما رأيت أمامي دائرة بيضاء كبيرة بداخلها نجمة خماسية تكونت من الشموع الحمراء المشتعلة، وفي أطراف النجمة أشياء بيضاء اللون لم نتبينها، هذا الشكل يُشبه تمامًا كما رأيته في البيت وفي ميدالية «إياد» والتي كانت مع «راحيل»! ماذا عليّ أن أفعل؟ إن عقلي مُشوش ومزدحمٌ بكثير من الأفكار، وفجأةً سمعنا صوتًا أجشّ يأتي من كل الاتجاهات يقول:

- غادروا قبل أن يُصيبكم الشر من عندنا.

كان رد فعل «سليمان» جريئًا إذ إنه أشار لنا بالاقتراب أكثر، وعندما اقتربنا هالنا ما رأينا، إن اللون الأبيض الذي يُزين الدائرة ما هو إلا جماجم بشرية، والنجمة الخماسية عبارة عن عظام بشرية، وفي منتصف النجمة كانت رأس «راحيل»! رأسها فقط!!

عندما اقتربنا أكثر، كانت رأس «راحيل» تبكِي ثم قالت في حزنٍ:

- انتظرتك كثيرًا.. لكنك لم تأتِ! اقتربت منها فتحولت الجماجم إلى وجوه بشرية لأطفالٍ ونساءٍ ورجالٍ! رءوس حية بلا أجسادٍ! وإذا بي أرى وجه أمي تنظر إليّ بحزنٍ! صرخت دون وعي..

- أمي.. أمي!!

نظر إليها «باسل» والعرق يتقطر من جبهته، وقد تسمّر في مكانه، بينما اقتربت أنا أكثر لأمسك برأسها فتحولت إلى جُمجمة مرة أخرى وبقية الرءوس أيضًا! وعندها شعَرت بيد «سليمان» تمنعني من الاقتراب أكثر، انتابتني حالة من الصراخ لم أسيطر عليها حتى هويت فاقدة الوعي.

***

(١٦)

بعد كل ما حدَث اتفق «باسل» مع الشيخ حسن على ميعاد زيارة أخرى، أملًا في إيجاد تفسير لما رأيناه، وبعد أن تأكدنا أن «راحيل» بخير ولم يُصيبها مكروه بعد ما رأيناه في المغارة، تأكدنا من أن هناك من يستهدفُها ويستهدف عائلتي بشكلٍ خاص، لكني علمت بعد أن أفقت في المشفَى أن «باسل» قد أثبت ما رأيناه في محضرِ النيابة، لتُعرض جميع الجماجم على الطب الشرعي، نعم لقد رأى «باسل» و«سليمان» رأس أمّي ورأس «راحيل» كما رأيتهما! رأسيهما الحقيقيين، وهما مفصولان عن جسدهما، رأسهما يبكيان! وإمعانًا في تصديق ما رأياه يقول «سليمان» إننا يجب أن نتفقد تربة أمي! وأن «باسل» سيتولى هذا الأمر بنفسه.

ووافق إيهاب على حضور «إياد» و«همسة» معنا عند الشيخ حسن، ووافقت «سما» تحت ضغط «إيهاب»؛ لأنها تخاف أن تُجرح مشاعري، لكنني شرحت لها أن «همسة» مَن أوصلتنا بالشيخ منذ البداية، وأنا لم أهتم لوجودها، حتى إنني لم أشعر بأي غيرة عندما رأيتهما معًا وكأنهما حبيبان، بل حمدت الله أن آلت الأمور إلى ما هي عليه الآن، ورغم تلميح «إياد» لعلاقتي بـ«باسل» فإننا لا يجمعنا شيء سوى حل لغز أبي وراحيل، وكأن الله وضعه في طريقي فقط لكي أرى «إياد» بعيون أمي رحمها الله.

بعد أن دخلنا الشقة رأينا عائلات يرتدون الأسود ويجلسون في هدوء على الأرض، الهدوء سائد والإضاءة خافتة والجميع ينظر إلى الأرض فلم نرَ وجوههم، لم تكُف «سما» عن قراءة القرآن والتسبيح

طيلة الوقت، وفجأة جاءت سيدة ترتدي تمامًا مثلما ترتدي السيدات المُتشحات بالسواد؛ ملامحها متجهمة ومُخيفة، تفحصتنا سريعًا وقالت بلهجة عنيفة وعيناها على «راحيل»:

- الشيخ يريدُ هذه الدمية..

كان تعلق «راحيل» بدميتها هذه دون باقي ألعابها قد وصل إلى ذِروته، ولم نكن لنمنعها من شيء في مثل هذه الظروف المرتبكة، خاصة وأن الدمية هدية أمي، احتضنت «راحيل» دميتها وهي تنظر إلي تحتمي بي فأردفت:

- لكن.. كيف علم بوجود الدمية وهو لم يرَنا بعدُ؟!

ظلت السيدة بملامح باردة لا تجيبني أو تنظر نحوي، إنها لا تنتظر سوى أن تأخذ الدمية، حينها أصررت ألّا أعطيها إياها، إلا أن «إياد» اقترب مني وهمس..

- «مورين».. هذا ليس وقت العناد، طالما أنه علم بوجود الدمية فلا بد أنه يعلم ماذا بها.

كان حديثه معقولًا ونجح في تهدئتي، إن ما أرجوه أن أتوصل إلى حقيقة ما يحدث بعيدًا عن انتصاري لنفسي، أخذتها من «راحيل» على وعِد بشراء دمية أكبر، وقد شعَرت بعدم تصديقها، لكن هذا لا يهم الآن.

بعد قليل دخلنا الغرفة مُخترقين البخور الكثيف كصفٍّ من النمل يريد أن يُنهي مهمة محددة، وهي معرفة ماذا أصاب «راحيل»؟ ولماذا رأينا وجه أمي أيضًا؟ هذه المرة في أجواء أشد رهبة وقبضة

للقلب والروح معًا، وكأن الهواء يريد أن يطبق على أنفاسنا واحدًا تلوَ الآخر.

وبعد أن انقشع البخور شيئًا فشيئًا رأينا الشيخ حسن جالسًا على الأرض فعرفنا بنفسه، لم يكن أمامه منضدة كما الست «عفاف»، بل كان أمامه مستطيل خشبيّ بني اللون، عليه شمعة حمراء مُضاءة وطبق فخار مملوء بالزيت وآخر به سائل أحمر وورقة وقلم! ثم قطعة قماش كبيرة حمراء اللون مُطبقة ومكتوب عليها أسماء الله الحسنى! كيف يضعها على الأرض وبها أسماء الله!

دعانا للجلوس، هذه المرة كانت أرضية الغرفة نظيفة مما جعلنا نجلس جميعًا على وسادات سوداء اللون وضعت على الأرض على شكل دائرة، جلس «باسل» عن يميني وإيهاب عن يسارى، بجانبه «سما» ثم «همسة» و«إياد»؛ كان الشيخ في الستينيات من عمره، أبيض اللون، نحيف الجسد، متوسط القامة، لحيته بيضاء قصيرة، حليق الشارب، عيناه حادتان تنظران لنا في جدية، لا يبتسم، ولا يبدي ردة فعل، كان يرتدي جلبابًا أسود وطاقية بيضاء فوق رأسه الحليقة.

بدأ حديثه وقد وضع الدّمية أمامه، وبيده سكين، تفحصنا جميعًا ثم حمل الدمية وأخذ يشقها من جميع الاتجاهات وهو يتمتم بكلمات لا تصل إلى أذننا، وكلما شقها صرخت «راحيل» ونحن لا نفهم ما يحدث! ثم أخرج من الدمية شاشًا ملفوفًا رائحته عفنة وعليه آثار دماء، أشياء مُقززة لا تُستخدم إلا في الأعمال الشفلية! ثم ورقة صغيرة أخذ يفتحها بعناية حتى قرأ أسماء عائلتي كلها

بداخلها وبجانبها رسومات وتعويذة وكلمة «هلاك»!! أشار بالورقة أمامنا لنراها بوضوح، فلجمت المفاجأةُ ألسنتنا جميعًا ولم نقوَ على الحديث، فلما انتهى بدت «راحيل» مُتعبة ومريضة، كانت تنظر إليه بوهنٍ ولا تنظر إلى أيٍّ منا.

هممت أن أتحدث لكن «إياد» أشار لي بالسكوت؛ فامتثلت له لأن الموقف مُقبض، أردف الشيخ في هدوءٍ..

- هذه الدمية مصدر الشر كله.. هذا مِن فِعل أبالسة الإنس.

همس «باسل» في أذني..

- هذا الرجل غير مريح..

جاوبته:

- كيف؟ إنه يفك السحر كما ترى ويفعل ما بوسعه!

أردف:

- سنرى.. لا عليك.. ستظهر الحقيقة.

كنت في حالة تشوش ذهني حاد، أفكّر من الذي يفعل هذا بعائلة مسالمة كعائلتي؟ وكيف يفعل ذلك بهدية أمّي لراحيل؟ ومتى؟ أم ترى هل أهداها أحد الأشخاص لأمي فأهدتها لراحيل؟ لا أدرا

نظر الشيخ إلى «راحيل» وأمرها أن تجلس في منتصف الدائرة على وسادة حمراء كُتب عليها طلاسم ففعلت بهدوء، أخذ الورقة والقلم وأخذ يكتب في هدوء أشياء لا نعلم عنها شيئًا، كنا في حالة ترقُّب لم تحدث لنا من قبلُ، العجيب أن «راحيل» كانت هادئة حتى

إنها بدت طبيعية جدًا!

حينها دخلت المساعدة التي كانت بصحبة زوجته ومعها طَشت كبير مملوء بالماء ووضعته بين الشيخ و«راحيل»، ثم دخلت طفلة في عمر «راحيل» بعدها، ووقفت كأنها تنتظر أمرًا ما، أغلقت السيدة باب الغرفة، ووقفت في أحد زواياها في حين بقيت الطفلة بجانب الشيخ.

تفحصنا الشيخ حسن بنظرات شك وسألنا وكأننا في اختبار..

- كم شخصًا في هذه الغرفة؟

أجابه «إياد» على الفور..

- عشرة أفراد..

لكن الشيخ لم يأبه بإجابة «إياد» وسأل «باسل» وهو ينظر إليه بعيون باردة..

- كم شخصًا في هذه الغرفة؟

أجابه «باسل» بملامح باردة..

- إنني أرى عشرة أفراد.

فأخذ الشيخ يتناوب نفس السؤال علينا حتى جاء دور «راحيل» فأخذت تنظر في كل الاتجاهات وقالت.د:

- إنهم كثير..

ثم أخذت تعد بصوت عالٍ بإصبعها في الهواء ثم قالت ببراءة:

- أربعون شخصًا.

فُغرت الأفواهُ، وارتسمت الدهشةُ على وجوه الجميع إلا الشيخ حسن ومساعدته والطفلة، حينها أخذ الشيخ بعضًا مِن الماء مِن أمامِه ونثره حول «راحيل» وقال لها..

- أنتِ الآن في دائرة حماية.. تشجّعي ولا تخافِي.

نظرنا إلى بعضنا البعض في ترقّب؛ لأننا نجهل تمامًا ما هو قادم على فعله، نظر الشيخ إلى المساعدة فأتت لتفتح القُماشة الحمراء وتغطي بها رأس «راحيل» إلى قدميها! ثم ذهبت لتشعل المَبخَرة التي خمد دخانها، ثم وقفت الطفلة في عمر «راحيل» بداخل الطست المملوء بالماء وأسقطت رأسها إلى الأسفل في انتظار أمر الشيخ، لكنه قام ووقف عند رأسي فأمسك بها وهو يتمتم بصوتٍ خافت، ثم تركني ليعيد الكرة سريعًا على كل مَن بالدائرة، كانت «سما» تمسك بسبحتها وتسبح فأمرها أن تترك سبحتها ولا تتحدث أبدًا! وكان هذا شيء مريب آخرا

أخذ يتمتم بكلمات فارتفعت رأس الطفلة بداخل الطست وقالت وهي تنظر إلى اللاشيء..

- إنه يريد الانتقام منها، لقد دخَلت عالمهم..

قال الشيخ حسن:

- أكملى..

قالت الطفلة وكأنها إنسان آلي..

- إنها ليست بمفردها، إن عائلتها كلها في دائرتهم..

سألها الشيخ حسن..

- لماذا؟

قالت بعد لحظات:

- إنه يقول أن الفروع سوف تسقط؛ لأن الجذور خانت العهد.

- هل من إيضاح أكثر؟

ارتجفت الطفلةُ وهي تومئ بالرفض، أخذ بيدها وأخرجها من الطست وأسلمها للمساعِدة لتخرجها من الغرفة، ثم عاد وجلس وقال:

- إن ما نواجهه مع «راحيل» عظيم، لكننا نريد معرفة سر ما حدَث، لقد طلبتُ من خُدامي المساعدة، وقد حضروا كما قالت «راحيل»، أريد منكم الترحيب بهم.

قال «إيهاب» باستهزاء..

- وكيف نرحب بهم يا ثُرى؟

نظر له الشيخ حسن بتوعدٍ وقال:

- أغمِضوا أعينكُم لتروا.. لا تفتحوها إلا بإذنٍ منّي.

بدأت ضربات قلبي تتسارع، أغمضنا عيوننا جميعًا في ترقُّب، وبعد قليلٍ قال الشيخ حسن بهدوء:

- افتحوا أعينكم لتروهم وترحبوا بهم..

فتحث عيني ببطءٍ، وكان الجو في الغرفة باردًا، وقد تحول إلى شبورة! ثم رأيت خيالات أناس تتجسد حتى رأيتهم مثلما أرى كل الحضور! إنهم يقفون في كل مكان، بيننا ووراءنا وأمامنا، أناس ملامحهم مُعوجة، وكأنها رسم تشكيلي، أزياؤهم غريبة وكأنها من كل العصور، يقفون بيننا وينتظرون شيئًا كما تنتظر الطفلة داخل الطست والسيدة في زاوية الغرفة، صرخت «سما» فأشار لها الشيخ بتوعدٍ جعلها تضع يدها على فمها لتكتمَ الصوت، فقال الشيخ حسن:

- هؤلاء من رأيتوهم بالخارج لا يُظهرون أنفسهم لأحد إلا إذا شك في وجودِهم.

أردفت وقد بدأت يدي ترتعش:

- هل.. هل السيدة التي طلبت الدمية..

قاطعني الشيخ مؤكدًا ما أفكر فيه..

- نعم إنها منهم.

ثم نظر إلى «إيهاب» الذي جحظت عيناه وهو ينظر حوله ويجاهد لكي يبقى في ثباتٍ، فأردف الشيخ:

- تظنون أنكم بمفردكم في هذا العالم؟ ولا توقنون بأن الجنّ يعيش معنا وبيننا ولا شك، يرَوْننا من حيث لا نراهم، ومن رحمة الله أن بيننا وبينهم ستارًا، فهم يعيشون في بُعد آخرَ.

ثم نظر إلى «باسل» وقال:

- ولكن.. ما الذي يأتي بهم إلى هنا؟ لا بد وأن شيئًا قد حدث! إن

الأمور في عالمهم وقوانينهم تختلف عنا وتتفق أيضًا، فهم لا يتركون ثأرهم مثلًا، مثلنا تمامًا نحن معشر الإنس.

ثم نظر الشيخ إلى الحضور من الجن وقال:

- هل نستطيع أن نعرف ما الذي حدث مع «راحيل» يا خُدام؟ لنبعده عنها إلى الأبد.

وتوقف نظره عند أحد أفراد الجن، وعلى الفور اقترب الجن من «راحيل» وأصدر صوتًا مُخيفًا وكأنه صفير حادًا على أثره قامت «راحيل» من مكانها ببطء، وبدأت قامتها تطول حتى بلغت سقف الغرفة، لا أعلم هل خُيل إلينا أم أن هيئتها تبدلت بالفعل! وعندها أشار الشيخ إلى الجني فطار واختفى في الهواء واختفى الباقون!

وبدأ الشيخ حسن يتلو آيات من القرآن بصوت عالٍ، ثم خفت صوته، لم أكن متأكدة أنه يقول الآيات بشكل صحيح، أظن أنه قد حذف بعض الكلمات من الآيات، وسمِعت أنفاسًا من حولي جيدًا وميزت بكاء «سما» المكتوم.

بعد دقائق عادت «راحيل» لطبيعتها وارتمت على الأرض وهي تعوي كالذئاب، فأمسك الشيخ برأسها المُغطّى بالقماشة الحمراء بقوة وقال:

- من ربُك؟ هل تؤمن بالنبي الأمي؟

آتانا الصوت وكأنه من عالم آخر يقول بحدة..

- هذا ليس من شأنك.. ولن يفيدك بالتأكيد.

سأله الشيخ حسن..

- ماذا فعَلت «راحيل» ولماذا تسكُن جسدَها؟

لم يُجيب الكائن وظلت «راحيل» تصرخ بصوت عجيب؛ فقال الشيخ بصوت حاسم:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. غد إلى عالمك وإلا لتعلم أنني سأحرقك.

كُنا نحملق في رعب مما نرى، لم يستطع أي منا أن يُنهي هذه الجلسة العجيبة، خاصة أن «راحيل» قد بدأت في الضحك بصوت امرأة عجوز مرة أخرى! تفحصها الشيخ بنظرات سريعة، وبقيت أفكر: هل من يسكن «راحيل» فرد من الجن؟ أم إنهما اثنان وربما أكثر، لكن لماذا؟

وفجأة ألقت «راحيل» غطاء رأسها على الأرض وهي تضحك وتقترب من الشيخ حسن في تحدٍّ وتقول بصوت رجل أجش:

- فاشلٌ.. تحتاج إلى تدريب خُدامك الضعاف... لقد هربوا جميعًا!

وهنا شعَرت أن الشيخ يحاول أن يُسيطر عليها، فأمسك برأسها بقوة وجعل يقرأ القرآن في ثباتٍ، وهي تصرخ، وقد حث الرجال على الإمساك بها، فقام «إياد» و«إيهاب» و«باسل» يسيطرون على جسدها الضعيف بقوةٍ، و«سما» تبكي وظلت «راحيل» تصرخ وتضحك في آنٍ واحدٍ، تركها الشيخ وراح يمسك بالورق ويدس القلم في السائل الأحمر ويرسم به على الورقة، وبعد كل رسمة تصرخ «راحيل» صرخة عظيمة، فأحرق الشيخ الورقة ثم وضعها في طست الماء

لتنطفئ، وفجأة ومن العدم ارتسمت نجمة خماسية بداخل دائرة نارية على الحائط! ثم امتدت النار بسرعة فاحترقت ستارة الغرفة، فالتفت إليها الشيخ حسن وقد علم أنه لم يعُد يُسيطر على الوضع، فترك «راحيل» ليحاول إطفاء الحريق، وبقيت «راحيل» تضحك حتى فقدت وعيها ولحقت بها أمها «سما» وقد لجّمت الأحداث ألسنتنا، لقد كانت ليلة مُزرية.

***

(١٧)

في هذا اليوم الملعون لم يكن الخروج من البيت سهلًا، فعندما خرجنا من الغرفة كان المنزل كله مشتعلًا! والأبواب موصدة من الخارج! من فعلها! بل من يجرؤ على فعلها؟ إذ يبدو أن الشيخ حسن له من الهيبة بين الناس ما يوقفهم عند الحد المسموح، حتى وإن كان مشعوذًا فالجميع يتجنب أذاه.

أقسمت «سما» أنها رأت أبي وأمي يحاولان إنقاذ «راحيل»! لقد رأيت ما يكفي لأصدّق أي شيء، إننا على قدرٍ محدود من العلم، لكن غرورنا يجعلنا على يقينٍ زائف بأننا على علم كامل بما يحدث حولنا.

مرت أيام هادئة بعد هذا اليوم المُرهق المليء بالعجائب، ولحُسن الحظ مكثت «راحيل» مع أبويها في بيتهم، ولأول مرة منذ فترة أخلد للنوم في هدوء مثل باقي البشر، وانخرط «باسل» في عمله وحيرته وتحديدًا في إثبات بعض الأحداث مما رآه في قضية مقتل أبي، ولم يؤمن بوجودها قط، أما «سليمان» فلم يكف عن الاطمئنان عن بعد بعدما علم ما حدث من «باسل».

وفي هذا الصباح وبينما كنت أستفيق على سريري وأستعيد توالي الأحداث السريع رغمًا عني، أدركت شيئًا هامًا، فرغم بشاعة ما حدث فإنّ هناك شيئًا جميلًا شعرت به في هذه الأيام القلائل مع «سليمان»، شعور كان بمثابة مفاجأة لي وله، إذ إننا تقربنا إلى بعضنا البعض أثناء مكالمتنا بخصوص قضية أبي وحل مشكلة «راحيل»، فصرنا نبدأ اليوم وننهيه معًا، وصرت أستشيره في أمور متفرقة، وصار يشاركني ما يحيره في عمله ويحكي عنه الكثير،

ووجدت فيه ما أطمح إليه في الرجل، إنه يمتلك الكثير من الصفات الحميدة؛ فوجدت نفسي أعجب بشخصيته دون أن أُدرك، ثم كان أن بُحنا بشعورنا العميق بالراحة أثناء تواصلنا، وكان هذا كافيًا لنصيرَ أصدقاء مقربين في وقت قصير لا يكفي حتى للتعارف!

لكن في هذا الصباح ووسط عاصفة ترابية يرن هاتفي لأجيب «سما» التي كانت تبكي بخرقة وتسألني..

- هل «راحيل» عندك؟

لأجيبها بالنفي؛ فقاطعتني وهي في حالة انهيار..

- لقد تركتها أمام التلفاز ونمت في ثباتٍ عميق، ربما لأنني أعاني إرهاقًا شديدًا، هذا كل ما فعلته، عندما استفقت لم أجِدها في البيت، بحثت عنها في كل مكانٍ.. لم أعد أحتمل ما يحدث يا «مورين».

وقبل أن أستفيق من الخبر جاءني اتصال «سليمان» فأجبته قائلة بسرعة:

- «سليمان».. لقد اختفت «راحيل» مرة أخرى!

سكت للحظات ليستوعب ما أقول وجاءت نبرته جادة وهو يُخمن:

- تُرى.. هل ذهبت إلى المشرحة مرة أخرى؟!

- لا أدري!

- سأُجري اتصالاتي، وسنعلم في غضونِ دقائق.. لكن هناك أخبار جديدة يجب أن تعلميها!

- ليس هناك أهم من اختفاء راحيل..

- اسمعى.. لقد أثبت الطب الشرعي أن المخ والقلب بداخل العلبتين الزجاجيتين في المغارة لأبيك رحمه الله!

قبل أن يُكمل حديثه سالت دموعي أنهارًا، وتوقف مخّي عن التفكير، لا أتخيل مدى الألم الذي مر به أبي أثناء ذلك، هل مات أثناء خلع أعضائه من جسده؟ أم قبل ذلك؟ أم بعده؟ ما أعلمه الآن أنني لن أترك حقّ أبي ليضيع أبدًا، وقبل أن أتفوه بكلمة أكمل «سليمان»..

- هناك أمر آخر.. «باسل» يشك أن إحدى الجماجم التي وجدناها تخص والدتك!

تسمّرتُ في مكاني، وأنا أرى أمي ممدة على الأرض للمرة الأخيرة، وأشعُر أن أوتار أعصابي تكاد تصل إلى مخّي وتبتلعه فلا أفهم شيئًا، كل ما استطعت فعله أن أتساءل بقلةِ حيلةٍ..

- ولكن.. لماذا؟ وكيف؟ ومتى؟!!!

قال «سليمان» بأسف..

- أنا آسف لسرد هذه الأخبار، يبدو أن القتل قد تم بغرض السحر وليس انتقامًا كما ظننا.. لكن لماذا؟

- وكيف سنعرف أن الجمجمة لأمي؟

- إن «باسل» يطلب الآن إذن من النيابة بفتح مقبرة والدتك ليقول الطب الشرعي كلمته الحاسمة في هذا الشك.

تمالكت نفسي حينها وسألته..

- ولكن لماذا يشك «باسل» في هذا الأمر من الأساس؟

مرت لحظات سكون قبل أن يتحدث «سليمان» وكأنه يُصارع ما يقول أو يريد ألّا يصدقه..

- «باسل» لم يشك منذ البداية ولكن..

- ولكن ماذا؟

- لقد رأى «باسل» «راحيل» في بيته، وهي مَن أخبرته أن يفتح مقبرة جدّتها..

لم يهمني كيف ذهبت «راحيل» لبيت «باسل»، المهم أننا وجدناها فقلت:

- الحمد لله سأهاتف «سما» لأطمئنها..

قاطعني «سليمان» بصوت عالٍ..

- «مورين».. إن «راحيل» اختفت أمام «باسل» بعد ذلك. وظل يبحث عنها طيلة الليل فلم يجدها! كما أن هناك شيئًا عجيبًا.. أخبرني به «باسل» ونرجو ألا تحدثي به أحد حتى نعلم الحقيقة.

- ما هو؟

- لقد أثبتت التحريات المبدئية أن عارف «الثربى» الحارس لمقبرة عائلتك لا يوجد له وجود!

- ماذا تعني؟

- أعني أنه ينتحل شخصية أخرى، وأنه هارب من عقوبة على الأرجح.. لا أعلم، كل ما فهمته من «باسل» أن اسمه ليس «عارف»!

شعرت بدوار حادّ، وبدأ صوته في الخفوت شيئًا فشيئًا وهو يقول:

- «مورين».. هل عندك تفسير لاختفاء «عارف» هذا.. هل كان أمينًا معكم، أقصد أظن أنه مُتورط بشكل ما، «مورين».. هل تسمعينني؟ ألو ألو...

***

(١٨)

لم تظهر «راحيل» ولم تُفدِ التحريات بأي شيء إلى الآن، وظل «إياد» يبحث عنها بشتى السبل الممكنة، إذ إنه تفقد جميع المستشفيات وعائلات أصدقائها والأماكن التي من الممكن الذهاب إليها دون فائدة! فهل ذهبت «راحيل» إلى عالم آخر؟ لقد سمعت عن تلك القصص المُحيرة، أناس ذهبوا لأبعاد أخرى ثم عادوا! إن اختفائها يجعلني أشعر بانتهاء الحياة، ويذكرني أنني عاجزة إلى أبعد حدّ.

اليوم رفضت عرض «سليمان» بأن يصطحبني معه في سيارته لفتح مقبرة أمي، في حين رفضت أختي وزوجها الحضور، إن حالتهم النفسية سيئة للغاية بعد اختفاء «راحيل»، ولولا أن «باسل» يؤكد دائمًا أنه سيجد «راحيل» لأصابهم الجنون، أصررت أن أذهب بسيارتي الخاصة فربما أحتاج أن أختلي بنفسي بعدها في أحد الأماكن، لأنني لا أتوقع أن يمر اليوم سلسًا، إن الأمر في غاية الصعوبة في كل الأحوال.

أمام مقبرة أمي وقبل فتحِها وقفت أقرأ «الفاتحة» في خشوع وأتمنى من الله أن تكون جثة أمي كاملة، حتى وإن لم يُحل اللغز، هذا ما كنت أراه في القضايا المُعقدة، ولم أتخيل أن أمُر به، وها أنا أشهد فتح مقبرة أمي لاستخراج جثتها! هذا شيء مؤذٍ نفسيًا تمامًا مثل قتل أبي.

كان «سليمان» يتفقدني كل عدة دقائق، وأرى التعاطف والقلق يغلبان عليه، أما «باسل» فكان مُترقبًا وسط رجالِ الأمن وغفير

المقبرة الجديد الذي لا أعرفه، حيث إن «عارف» أو أيًا كان اسمه قد اختفى وأصبح مثل إبرة في كومة قش، لم يستطع «باسل» إلى الآن العثور عليه، أكان يبيع هذا الحقير الجثث للسحرة والمشعوذين؟

بدأ الرجل في فتح المقبرة وبدأ قلبي يرتجف كلما تخيلت رؤية أمي الجميلة التي أوحشتني على هيئة هيكل عظمي! نظر إلي «باسل» في أسف، بينما أمسك «سليمان» بيدي لأول مرة وقال في محاولة لطمئنتي..

- إجراء سخيف لكنه مهم.. لن أدعك تمري بموقف كهذا في المستقبل.

كان لحديثه وقعٌ في قلبي كبير، لكني شعرت أن ما يقوله ربما يحتاج للمرور بمراحل عديدة، إذ إن «المستقبل» أصبح متوقفًا على فهم ما يحدث الآن، فقط أريد أن أفهم لماذا؟ ولماذا عائلتي بالتحديد؟ حينها سأبحث عن المستقبل الذي يتحدث عنه «سليمان».

وفجأة سمعت صوت الغفير يصيح..

- لا إله إلا الله..

كان للمشهد هيبة وغربة، ورأيت أمي في كفنها الأبيض الذي ملأه التراب، وقد ذهب عنها كل شيء، ولم يتبق منها إلا حفنة من العظام، أردف الغفير الجديد موجهًا الحديث لـ«باسل»..

- الجثة ليس بها جمجمة يا بيه!

حينها قال «باسل» لسليمان..

- كما توقعت.

أجابه سليمان..

- إذن لا بد من مُضاهاة جميع الجماجم بعظامها.. سنأخذ عينة، لكن.. عدد الجماجم كبير.

قال «باسل» ببساطة..

- تذكر عندما رأيناها في المغارة؟ لقد ميزت هذه الجمجمة بقلم بينما كنت تُهدئ «مورين»، سأريها لك.

لم أستطع أن أتحمل ما أرى وأسمع، انتابتني حالة هستيرية جعلتني لا أسيطر على أفعالي، بكيت وصرخت وركضت بكل قوة نحو سيارتي، وسط مراقبة العيون الكثيرة من حولي، وقد رأيتهم كالأشباح يركضون خلفي إلا أنني لم أتوقف، وسمعت «باسل» يقول بحسم:

- دعوها تغادر لقد انتهت مهمتها، دعوها ترتاح.

لكني سمعت صوت «سليمان» ينادي اسمي بلا انقطاع وأنا أفقده كلما ركضت، وأخيرًا وصلت لسيارتي وبقيت أبكي بداخلها بشدة، واخترت أن أقود السيارة دون وجهة محددة، فقط أقود وسط السيارات والمارة، أبكي وأفكر وأنا مشوشة إلى أقصى درجة، هل من شيء كان علي فعله لأتجنب كل هذه المآسي ولم أفعله؟

ما هذه اللعنة التي أصابت عائلتي!

***

لم تتوقف دموعي منذ أن علمت أن جسد أمي يرقد غير مُكتمل في رقدتها الأخيرة، ولم أفعل شيئًا منذ ذلك الحين إلا الصلاة والدعاء، وبعد أن انتهى الطب الشرعي من كلمته، بعد أن أخذوا جزءًا من الجمجمة للتأكد من سبب الوفاة، وتأكدنا أن إحدى الجماجم في المغارة كانت لأمي بالفعل، وقفت مع «سليمان» و«باسل» أمام مقبرتها للمرة الثانية لدفن الجمجمة؛ لأن «سما» لا تقوى على إعادة المشهد مرة أخرى! لقد دفنت أمي مرتين!

والأبشع أن «راحيل» لم تظهر بعد، و«باسل» يبذل كل ما في وسعه ليجدها، ويبدو أن «إياد» «انشغل» في عمله ولم يعد يبحث عنها، بينما بات أبواها في أسوأ حال، حاول «سليمان» الاطمئنان عليّ مرات كثيرة لكنني لم أكُن في حالة تسمح بالتحدُّث مع أحد، لقد اعتزلت العالم لأيام أحاول أن أرمم فيها نفسي، واليوم خرجت من البيت بلا هدفٍ، فقط أقود السيارة وأحاول أن أسيطر على دموعي التي تنسال كُلما تذكّرت كل ما حدَث، حينها لاحظت أن المرآة أمامي تحتاج إلى إعادة ضبط، لكني عندما حاولت ضبطها ضُعقت، لقد رأيت «راحيل» تجلس في الخلف! ثم همست في أذني قائلة:

- إلى مغارة المقطم..

التفت بسرعة لأتأكد من وجودها لكنها اختفت! عزمت أن أتجه حيث وجّهتني «راحيل» أو هذه المخلوقة، وبالفعل وجدت نفسي أوقف سيارتي في المقطم بالقرب من مسرح الجريمة! لم أُخطط للمجيء إلى هنا في بداية يومي، لكن يبدو أن للمكان رأيًا آخر، إنه كئيب ومُوحش لكن شعور تفقد المغارة من جديد يسيطرُ عليّ الآن،

بعد أن أغلقت سيارتي توجهت حيث المغارة فورًا فربما أرى شيئًا مُفيدًا لم نعثر عليه.

وبدأت أقترب وأنا أتخيل كيف قتلوا أبي المسكين، أقترب ودقات قلبي تخترق صدري حتى وصلتُ إلى باب المغارة، ها هي الرائحة الكريهة والذباب، لم يتغير شيء، فكرت أن أُغادر لكني أردت أن أستكمل التجربة بنفسي، ودخلت من جديد لهذا المكان الكريه الذي كان مليئًا بالأعضاءِ والعظام البشرية، ولكن المفاجأة لجّمت لساني وتوقفت عن الحركة، وأنا أرى «إياد» و«همسة» مُرتديان ملابس سوداء ويؤديان طقوسًا شيطانية!

وبدأت أراقب من بعيدٍ ما يحدث أمام، إن «إياد» يجلس على الأرض أمام النجمة، وبداخلها الشموع وجماجم جديدة على ما يبدو، وفي يده كتابٌ، وفي المقابل أمامه «همسة» تُمسك بكتابٍ ويردّدان عبارات لا تصل لأذنى! وهما يرتديان شعارًا يحمل نفس الرسمة التي أراها في كل مكانٍ في سلسلة كبيرة! النجمةُ بداخل الدائرة، ما هذا الذي أراه! لقد نجّاني الله منه ولا شك، لم أعلم ماذا أفعل؟ هل أقتحم خلوتهما؟ أم أهاتف «سليمان» و«باسل» ليحضرا؟ وقبل أن أفكر سمِعت صوت طفلةٍ تبكي! إنه صوت «راحيل»! كانت صدمتي شديدة!

توقفت «همسة» عن القراءة وأشارت له، فقام من مكانه واتجها معًا نحو زاوية لا أستطيع رؤيتها، حينها أخرجتُ هاتفي واتصلت بـ«سليمان» على الفور، عندما أجابني كانت نبرة صوتي أشبه بالفحيحِ وأنا أقول:

- «سليمان».. أنا في مغارة المقطم.. لا بد أن تحضر مع «باسل»، إن «إياد» و«همسة» هما مَن خطفا «راحيل»..

جاءني صوته عاليًا..

- «مورين».. أين أنت؟

أجبته بنفس الصوت..

- «راحيل» مع «إياد» في مغارة المقطم..

علا صوته أكثر وهو يقول:

- لا أستطيع سماعك..

- المغاااار...

وقبل أن أجيبه كانت «همسة» تقف ورائي تبتسم وتمسك بسكينٍ حادٍ، وتشير أن أغلق الهاتف، في حين كان «سليمان» لا زال يتسائل بصوت عالٍ أين أنا ولم يفهمنى، ظننت أن هذا المشهد لا يحدث إلا في الأفلام السينمائية فقط! لكنه حدَث!

قادتني «همسة» دون كلمة واحدة حيث النجمة الخماسية بداخل دائرة، وعندها رأيت «راحيل» ترتدي الفستان الأسود وتجلس مُقيدة على كرسي في وسط النجمة، وتميل بوجهها نحو الأرض وضفائرها المنسدلة تغطي وجهها، ركضت نحوها دون أن أبالي بتهديد «همسة» وأنا أصرخ..

- «راحيل».. هل تأذيت؟؟ لا تخافي منهما صارحيني يا حبيبتي، وأعِدك سوف تنالي حقك منهما.

بدأت «راحيل» ترفع رأسها شيئًا فشيئًا حتى تلاقت أعيننا فصرخت صرخة عظيمة، إنه جسد «راحيل» ووجه امرأة عجوز! حينها ركع «إياد» و«همسة» لها، وبدأت العجوز في فك وثاقها، وكلما تحررت أكثر كانت الدائرة تُرسم وتقترب من الانتهاء وبداخلها النجمة الخماسية تُرسم أيضًا، لكن هذه المرة مع طلاسم تُكتب بداخلهما على الحائط وتبدأ في التوهج! يا تُرى ماذا تعني هذه التعويذة؟

ضحِكت العجوز وأنا في عالم آخرَ لا أقوى على فهم شيء بعد كل ما سمعته ورأيته، لكن كان واضحًا أنها تسخرهما وأنها ليست بشرًا!

ضحِكت بسخرية وهي تنظر في عيني وقالت..

- أنتِ ساذجة مثل كل البشر..

صرخت في وجهها..

- أين «راحيل»؟

قالت ببساطة..

- لقد قتلت «راحيل» منذ ساعات قليلة.. وسوف أقتلك أنتِ أيضًا يا عزيزتي.

حينها لم أتمالك نفسي وأنا أستدير لأخطف السكين من يد «همسه» وأركضُ نحو هذا المسخ لأقتله دون تردد، لكن العجوز نظرت إليّ مُحذرة فإذا بي أتسمّر مكاني وكأنني مُقيدة! ولكنني تذكرت أن أقرأ القرآن كما كانت تفعل أمي دائمًا في المواقف الصعبة أملًا في النجاة، وعندما قرأت آية «الكرسى» بدأ جسد

العجوز يتلوّى، وسمِعت صوت عواء لم ينقطع، وتمكنت من مواصلة السير لكن بخطواتٍ ثقيلةٍ لا تقوى على الحركة، حينها كانا «إياد» و«همسة» يُكملان ما بدءوه من تعاويذ، وبدأت أشعر بكهرباء تسري في جسدي! لكنني تحاملت على نفسي حتى وصلت للعجوز، وأمسكتُ بشعر رأسها إلى الوراء، ووضعت السكين على رقبتها، وبدأتِ الطلاسم المتوهجة على الحائط تخفت، وحينها صرَخت بصوت «راحيل» لكنني لم أبالِ، فلجأت لحيلة أخرى فقالت بصوت «راحيل» وأسلوبها:

- «مورين».. أنا «راحيل».. لا تقتليني أرجوك، أنتِ مسحورة صدقيني.

لن أتأثر فأنا أعلم أن ما أسمعه مجرد سِحر، فهمت «راحيل» أو هذا الكائن ما يدور برأسي فقالت:

- سوف أُعطيك علامة.. تتذكرين يوم ماتت جدّتي كانت تعاني من الكوابيس؟

تيبست في مكاني وشعرت أن قلبي ينخلع، لم أجِبها فأكملت:

- لقد رأت هذه المغارة في أحلامها كثيرًا، صدقيني.. لقد سمِعتها تتحدّث إلى إحدى صديقاتها وتروي لها أنها ترى نفسها كثيرًا تبحث عنك في مكانٍ مُوحش كالمغارة.. أنا لا أكذب.

لن أقع في الفخّ أبدًا، إن كل ما تريده هو التعاطف، نظرت إلى هذا الكائن لا مبالية، وبدأت أنحز رقبتها في بطء وهي تصرخ، وفجأة دخل «سليمان» و«باسل» ومعهما بعض أفراد الشرطة، وإذا بي أسمع

«راحيل» تستغيث بهم! وسمعت «سليمان» يصيح..

- «مورين».. ما الذي تفعلينه.. اتركي راحيل؟

صحت قائلة:

- إنها ليست «راحيل»!!

وجّه «باسل» سلاحه الناري نحو «إياد» وهو يبتسم قائلًا:

- لم يحدث قط أن أخطأ حدسي.. كنت أعلم تمامًا أنك من تؤذي «راحيل»، ضعا أيديكما وراء ظهريكما.

تحولت ملامح «إياد» و«همسة» إلى شيء شيطاني مُخيف وقال:

- صدقني لن تستطيع فعل شيء معي.. إنني أقوى مما تتخيل.

حينها بدأ «سليمان» بقراءة آية الكرسي بصوت عالٍ، وبدأت ملامح «إياد» و«همسة» تتبدل مرة أخرى وتعود لطبيعتها، والألم يبدو على ملامحهما، وسمِعت صوت صرخاتهما واضحًا وإياد يقول:

- توقف.. أنت تؤذيني.. كفَى.. ستدفع الثمنَ.

حينها ركضت «راحيل» نحو «باسل» وهي تبكي، ووسط إندهاش الجميع رأيتها «راحيل» بالفِعل! وقد احتضنها «باسل» ليهدئ من روعها، أمسكا «إياد» و«همسة» بشعارهما ثم اختفيا في التوّ واللحظة!

وبقيت أنظر إلى «راحيل» وأغمض عيني وأفتحها، وأنا أصارع عقلي ألّا ينهار.

***

(١٩)

جلستُ مُنهكة في مكتب الرائد «باسل غنيم» ليُنهي محضر الضبط في قسم الشرطة، كنت أجلس في مقابل «سليمان» أمام مكتبه، أنظر إلى «راحيل» التي راحت تغط في نوم عميق على كنبة جلدية سوداء اللون، وكان «باسل» يمسك بهاتف غريب وينقله بين يديه، لم أفقه شيئًا من حديث «باسل» و«سليمان»، وكأنني في عالم آخر، هل حقًا كِدت أقتل راحيل؟ وجّه «باسل» نظَره إليّ وهو يقول في صرامة:

- أسفَرت التحريات أن اسم «عارف سعد» الحقيقي هو «ضاحي السيد»، وكان يستخدم البطاقة الشخصية لشخص ميتٍ، وأنه كان يبيع الجثثَ لعدة سنوات، وكان هاربًا من تنفيذ عدة عقوبات سابقة أهمها التزوير، لكنه بحوزتنا الآن، سوف نستدعيه في وجودك لتسمعي اعترافه بنفسك، فهل أنت جاهزة؟

وهنا دقّ البابُ ودخل أحد أفراد الشرطة وهو يقدم أوراقًا أمام «باسل» وقال له:

- إنهما بالخارج.

فتهلل وجه «باسل» فرحًا وهو ينظر إلينا ويقول:

- جميل.. لقد شرّفَا؛ «إياد» وهمسة، أدخِلهم مع ضاحي بعد خمس دقائق.

خرج الرجل فقال «باسل» لي حاسمًا:

- لكن قبل ذلك أريد أن أعلم ماذا دهاك في المغارة لتحاولي قتل «راحيل»؟

قلت له وعقلي يكاد يُجن..

- صدقني يا «باسل» لم تكن «راحيل».. لقد كانت امرأة عجوز، وقالت إنها قتلت «راحيل» وتوعّدتني بنفس المصير!

قال «سليمان» بهدوء..

- إنها تخدعك لكي تقتلي «راحيل».. حمدًا لله أننا وصلنا في التوقيت المناسب.

- لكنني قد رأيت «إياد» و«همسة» يمتثلان لها في خنوعٍ ويؤديان طقوسًا شيطانية..

بدَا على «باسل» عدم الاقتناع بما قاله؛ فقال «سليمان» مؤيدًا:

- لا أعلم كيف تتعجب الآن يا «باسل»؟ لقد رأيت أنت ما لم تصدقه في حياتك من قبلُ!

زفر «باسل» وقال والحيرة قد ارتسمت على وجهه:

- لا أتعجب، إنني أصدقها وأصدق ما رأيته بالفعل، لكن جزءًا من عقلي لا زال يقاوم، فأنا لا أستطيع سرد ما حدث في المحضر، فكل ما حدث يتعارض مع منطق العقل والأدلة المادية.

أردف «سليمان»..

- نعم.. مثلما يحدث معي في المشرحة تمامًا وأنتَ لا تُصدقه.. لكن عقلي لا يقاومه.

وهنا دخَل أحد أفراد الشرطة مصطحبًا «إياد» و«همسة» وضاحي مقيدين، و«إياد» و«همسة» مرتديان ملابس مختلفة، ثم تركهم وخرج، لم ينظر أي منهم نحوي، قال «باسل»..

- في البداية.. أنت متهم بخطفِ الطفلة «راحيل إيهاب»..

توقف «باسل» للحظات وقال:

- بصفة شخصية يساورني فضول يا أخي.. كيف خطفتها وأنت تمثل طيلة الوقت أنك كأبيها تمامًا؟!

أردف «إياد» ببرود:

- الأمر بسيط.. عبر الهاتف أخبرتها عندما تكون بمفردها تمامًا تُهاتفني لكي أصطحبها للإستوديو كما نفعل، إنها تحبني وتثق بي.

أردف «سليمان»..

- هذا أقذر ما سمعت على مدار عُمري المهني.

سأل «باسل» بحسم:

- أريد تفسيرًا منطقيًا لِما رأيته في المغارة.. كيف اختفيتُما؟

بعد لحظات أدرك «إياد» أن ليس هناك مفر من الاعتراف؛ فنظر إلى «همسة» وكأنه يتملّص من وعدٍ ما وقال:

- لم نختفِ.. لقد سَحرنا أعينكم.

سأله «باسل»:

- كيف؟

نظر «إياد» لـ«همسة» وكأنه يستأذن منها فبدت غاضبة وقالت في حنق:

- ستكون العاقبة وخيمة علينا إذا ما أفشينا شيئًا..

صاح «باسل» في حدة:

- اِخرسي.. لم أطلب منكِ الإجابة، سيحين دورك.

ثم نظر إلى «إياد» وقال مُحذرًا..

- وكيف سحرتما أعيننا؟

أجابه «إياد» بصوتٍ خافتٍ..

- إنها التميمة..

- ماذا بها؟

تلفت حوله «إياد» قبل أن يجيبَ..

- إنها تميمة قديمة تُسخّر من تريد ليصبح عبدًا لك، نستطيع بها أن نجعلك تتخيل أي شيء، هذا ما حدث في المغارة ببساطةٍ، أردنا أن تتخيلوا أننا اختفينا.

أردفت والفضول يسيطر على عقلي:

- وما دلالة النجمة والدائرة؟

- النجمة الخماسية هي رمز الشيطان نفسه، والدائرة رمز السيطرة.

كان «سليمان» مندهشًا يحملق فيهما، لكنني لم أهتم بما قاله ولم

أتمالك نفسي وصحت فيهما:

- وأين بدّلتما ملابسكما السوداء؟ السوداء! إذن لم يكن فستان «راحيل» الأسود هدية! لقد كان مسحورًا! كذلك الميدالية لم تكن «راحيل» مَن أهدتها إليك.. يا لك من كاذب خائن!

نظر «إياد» في الاتجاه الآخر وهو يقول:

- لم يكن لدينا رفاهية الاختيار، لدينا ميعاد لتنفيذ الأوامر لكي نأخذ ما نُريد، لقد كانت التميمة إحدى الخطوات الهامة في تسخير «راحيل» واستخدامها، إن «راحيل» تحفظ أجزاء من القرآن وهذا جعل مهمتنا صعبة.

شعرت باشمئزاز شديد وأردفت:

- إن أقصى ما خطر في بالي أنكما على علاقة عاطفية، لم تخطر لي فكرة أنكما عبَدَة للشيطان، وأنكما على هذا المستوى من الكُفر!

قال «باسل» لضاحي بسخرية..

- أعد أقوالك الآن يا «ضاحي».. أم أنك أحببتَ اسم «عارف» أكثر؟

نظر «ضاحي» إلى «همسة» بغضب وقال..

- لقد دفعت الست «همسة» عشرة آلاف جنيه لكي أُعطيها جمجمة السيدة «عالية»..

أردف «باسل»:

- ولماذا أرادتِ الجُمجمة؟

- لأنهما يستخدمان الأعضاء البشرية في أمور السّحر.

قالت «همسة»:

- كاذب.. لا يوجد دليل..

نظر «باسل» إلى «همسة» في تحدٍّ ثم فتح الهاتف الذي بيده لنسمع تسجيل بصوت «ضاحي» و«همسة» في إنهاء صفقتهما بتسليمها جمجمة أمي! وهنا بُهتت «همسة» وأرادت أن تضرب «ضاحي» لولا قيدها، قمت من مكاني وبصقت عليهما، فأبعدني عنهما «سليمان»، حينها سألها «باسل» بحسم:

- لماذا أردت شراء الجمجمة وماذا كنتما تفعلان في مسرح الجريمة؟

فأردف «إياد» على الفور في حسرة:

- كنت أنفذ ما أرادته «همسة»:

قاطعته «همسة»:

- ليس لي شأنٌ بنبش القبور، وحضوري معه لمسرح الجريمة كان بدافع الفضول بعد أن أخبرني أنه ذاهب إلى مغارة في جبل المقطم.. إنها مغامرة ليس أكثر و..

قاطعها «باسل» بصرامة...

- قُلت لكِ.. لم يَحِنْ دورك في الأسئلة بعدُ.

قال «إياد» مُندهشًا..

- إنني أملك الكثير من الأدلة، إنها إحدى أعضاء الطائفة الجديدة المزعوم انتشارها في البلاد، إنهم لا يؤمنون بالله ويغرون الأعضاء الجُدد أمثالي بالثراء السريع والشهرة، لقد انجرفت وراء أهوائي لكنني ندِمت الآن.

سأله «باسل»:

- وهل لعملك علاقة بهم؟

- إنهم ينتشرون في كل الأعمال، يعرفون كيف يتسربون إلى عقلك من خلال تحقيق حُلم قديم كنت تتمناه، ويعتمدون بشكلٍ أساسي على السحر، و لذلك تركت عملي كصيدلاني وعملت مذيعًا بالراديو.

سأله «باسل»:

- من الذي قتل السيد «هاشم» وأخذ أعضاءه؟

نظر «إياد» لـ«همسة» التي أطالت النظر إلى الأرض بحقًا عن كذبة أخرى وقال:

- همسة..

صرخت همسة..

- إخرس يا غبي.

سأله «باسل»:

- لكن تقرير الطب الشرعي يفيد بأن الفاعل يعلم تمامًا مكان الأعضاء، لا بد أن يكون جراحًا.

استرسل «إياد» في يأس:

- ذلك لأن «همسة» كانت طبيبة جراحة، وتركت الجراحة من أجل الشهرة كما وعدها رئيس الطائفة، إنه يختار الأعضاء من مختلف المجالات.. طب، هندسة، محاماة.. وغيرها الكثير.

حاول «باسل» أن يُخفي تعجبه وهو ينظر لـ«همسة» التي بدت غاضبة جدًا وسأل:

- ولماذا هذه الأعضاء بالتحديد؟

لم تجيبه «همسة» لكن «إياد» فعل..

- إن أخذ الأعضاء النبيلة مثل القلب والمخ إحدى الخطوات الهامة في معاهدة الشياطين.

فسأله «باسل»:

- ومن الذي إستدرج السيد هاشم إلى المغارة؟

أسرعت «همسة» في الإجابة هذه المرة..

- لقد أعطى «إياد» الأمر لأحد أصدقائه بالتنفيذ، لقد جعل أحد الأعضاء يتقرب إلى السيد «هاشم» أكثر ويأخذه إلى دروس دينٍ بعدما اختار السيد «هاشم» هذا الاتجاه في حياته، وشيئًا فشيئًا اصطحبه إلى خلوات في مساجد عدة، هذا لتسهل مهمته حينما يصطحبه لخلوة في مسجد بجبلِ المقطم فلا يشك فيه.

سألها «باسل» بفضول تملّك مننا جميعًا..

- مَن؟

بدت وكأنها تتذكر الاسم وقالت بتردد:

- «عبد الحكيم».

نظر لي «باسل» وقال بنبرة ساخرة:

- أقرب أصدقائه!

قال «سليمان» في حزن لم يخفيه..

- يا الله..استخدمتم الدين لإرضاء الشيطان! وجعلتم من الأصدقاء أعداء! أنتم حقًا شياطين الإنس.

أصبحت ملامح «باسل» أكثر حِدة وهو يسألها:

- ولكن لماذا «مورين» وعائلتها؟

حينها نظرت «همسة» لِي ولـ«باسل» في استعلاء وقالت:

- ما أعلمه أن السيد «هاشم» قد عقد نفس العقد منذ سنوات بعيدة من أجل الثراء والشهرة أيضًا..

صرخت فيها..

- كاذبة..

قمت من مكاني وقبل أن أقترب منها كان «سليمان» يمسك بذراعي خشية أن أتحرك وهو يهمس..

- «مورين».. انتظري لا بد أن نفهمَ.

سألها «باسل»:

- كيف علمت هذا؟ أنت في مثل سن ابنته! ولماذا قُتل بهذه الطريقة إن كان قد أبرم نفس العقد كما تقولين؟

قالت في هدوء:

- لقد كان شرط العقد تقديم قُربان بشري من نَسله، لكنه لم يفِ بوعدِه عندما رُزق بـ«سما» ثم «مورين»، وعندَها طُلب منه تقديم أعضاء «راحيل» النبيلة كقُربان للعقد وإلا سينال أشد العقاب، رفَض فعُوقب بموتِ زوجته، وحينها اتّجه للعبادة أملًا في الخلاص.

قال «سليمان»:

- إذن تاب الرجل إلى الله من فعلته ولم تتركوه؟

قالت «همسة»:

- لم يتركه الشيطان.

قال «باسل»:

- كيف قتلتما السيدة «عالية»؟

أردفت «همسة» على الفور نافية..

- لم أقتلها..

قال «باسل» بحدةٍ:

- سوف أعلم الحقيقة.. ولكن هل أبرمتما هذا العقد أيضًا؟

أردفت «همسة» بصوت خافت:

- ليس بعد، إن الشرط في عقدنا مختلف، لقد أُمرنا بتقديم قُربان

عقد السيد «هاشم» بقتل أسرته كلها، وأخذ أعضائه النبيلة عقابًا له.

قال «باسل»:

- إذن.. السيدة «عالية» والسيد «هاشم» كانا البداية فقط..

قالت «همسة» في هدوء:

- نعم.. ثم «راحيل» ثم «مورين» و«سما».. لكن ليس لي علاقة بموت السيدة «عالية».

نظر إليها «إياد» في حسرة فقال «باسل» بحسم:

- سنرى ذلك.

بكيت مُردفة في أسف:

- قتلتما أمي وأبي! لن أفرط في حقهما ما حييت..

ساد الصمت وتذكرت حب «إياد» لراحيل والذي ظننته في يوم من الأيام صادقًا فقلت:

- لذلك كنتما تصطحبان «راحيل» إلى الإستوديو وتشتريان لها الألعاب؟ لتثق بكما وتسيطرا عليها!

أجابت «همسة» في برود..

- لم تكن السيطرة على «راحيل» سهلة في بداية الأمر، ذلك لأن السيدة عالية جدتها كانت ترقيها بآيات قرآنية يوميًا وتُحفظها القرآن.. لذلك رأينا أن نضع لها عزيمة شيطانية قوية لدفع التحصين.

أردف «باسل»:

- كيف؟

أجابت «همسة»:

- لقد لاحظ «إياد» تعلق «راحيل» بالدمية، فجعلها تأخذها عندما اصطحبها في إحدى المرات للإستوديو، وتم الأمر سريعًا.

صرخت حينها..

- لكن الشيخ حسن قد فك السحر كلّه!

نظرا «إياد» و«همسة» إلى بعضهما نظرة ذات مغزي فصحت فيهما:

- لماذا فعل هذا؟

أردف «إياد» بنبرة خافتة:

- لكسب ثقتكم.

فقال «باسل» وقد بدا مُغتاظًا..

- إنه ساحر، لأول مرة في حياتي المهنية أخالف إحساسي، وأصدق مَن حولي، أريد تفسيرًا في الحال.

تلعثم «إياد» قائلًا:

- نعم.. إنه ليس بشيخ، إنه ساحر يزيد الأمور سوءًا، لقد كانت الدمية أولى خطوات السحر وليست أخطرها..

صمت «إياد» للحظات فصاح «باسل» وهو يضرب المكتب بقبضته..

- أكمل ولا تُراوغ؛ لأنني سأعرف الحقيقة.

قال «إياد» بصوتٍ خافت:

- لقد قرأ على «راحيل» تعويذة لم تكن لتخيب أبدًا، كنا قد اقتربنا من تنفيذ الأمر وبرم العقد لكن يبدو أن أحد الحضور كان يقرأ الرقية الشرعية في صمت مما أفسد الأمر كلّه!

حينها تذكرت «سما»، فوجّه «سليمان» حديثه لـ«باسل» قائلًا:

- إذن هذا الأفّاق حسن شريك في كثير من الجرائم..

قال «باسل»:

- هذا يفسر الكثير من الأمور ويفسر موت الجدة المفاجئ.. لن يُفلت أحد من العقاب.

قالت «همسة» بحدة:

- لا لا.. ليس لي شأن بموت الجدة.. صدقني.. إنه «إياد» مَن خَطط ودبّر وقتَل.

قال «سليمان»:

- سيقول الطب الشرعي كلمته في سبب الوفاة.. ستنكشف الأمور وتظهر الحقيقة.

نظر «باسل» إليهما وهو يبتسم في أسى وقال وهو يجول ببصره في كل الاتجاهات:

- أتعلمان شيئًا؟ إنني أصدقكما لكنني لا أستطيع أن أسرد الحقيقة هُنا! كيف سينظر إليّ أهل الشرطة والنيابة والقضاء؟ سينتهي

تاريخي المهني وأنا لا أملك أدلة أو إجابات منطقية، فطالما لا يعاني المرء من ذات المشكلة فسيكون من السهل عليه اتهامي بالدجل أو ربما الخرَف.

كنت قد فقدت السيطرة على أعصابي ودموعي وقلت بنبرة بائسة:

- من هي العجوز التي رأيتها في المغارة؟

نظر كل من «إياد» و«همسة» حولهما في خوفٍ،وقال «إياد»:

- الآن تعرفين من العجوز.. أنا لا أستطيع لفظ الاسم..

قال «باسل» بأسفٍ:

- ربما يقصد الشيطان الذي أبرم العقد مع أباكِ يا «مورين».

نظر إليّ «سليمان» وقال بنبرة حزينة:

- علينا أن نتقبل وجود الشر وأنه يشغل بال الناس.

حينها انسابت دموعي حارقة، يا ليتني ما علمتُ، سامحك الله يا أبي.. لقد بنيتَ ما بنيت بمجهودك ومثابرتك ولم ينفعك السحر بشيء.. لقد جلبت لنا الشر من أجل لا شيء!

***

(٢٠)

مرت الأيام هادئة رغم كل العواصف التي لا تهدأ في عقلي؛ حبي لأبي، ورفضي لفعله يتصارعان طيلة الوقت، أتذكر كلماته عن كوننا بشر نُصيب ونخطئ، فأتفهم شعوره حينها، إن فرضية الخطأ محتومة، ولكن الحمد لله أن التوبة والحُكم والمصير له سبحانه، فلو كانت البشر معنية بالغفران لما نَجا أحد منّا.

علمت من «باسل» أن «عبد الحكيم» صديق أبي قد هرب إلى حيث تعيش ابنته في إحدى الدول الأوروبية، عندما علم بالقبض على «همسة» و«إياد»، لكنني لن أنسى حق أبي ما حييت ولن أسامحه.

استيقظت في هذا الصباح الرمادي في غرفتي أفكّر في تقلبات الحياة، لقد بدأت أنسى كيف أنام وأصحو بلا متاعب وما ورائيات وإجهاد، أشياء ليس لها تفسير تُنهك العقل وتجهده، الآن أنام دون عناء انتظار المجهول، وعادت الحياة نوعًا ما إلى مجراها الطبيعي، وعادت «راحيل» التي أعرفها، أو إلى أقرب ما أعرفه منها، لكن أيامنا كما نعرفها معًا لم تُعد، وبقِيت الذكريات تُطاردنا مهما تجاهلناها، إنني أرى أمي مُلقاة على الأرض كلما دخلتُ البيت، وأرى أبي كما رأيته في المشرحة كلما خرجت من البيت، ثم أسترجع أنني كنت على وشك قتل ابنة شقيقتي التي هي مثابة ابنتي! وأتعجب هل كل ما لاقيناه كان عقابًا لأبي وهذا الحديث الفارغ؟ هل فعل أبي ما فعل حقًّا؟ إنني لا أصدّق هذه الرواية، إن الموتى لا يعودون لقول الحقيقة!

والآن.. لا بد أن أفكر في استكمال حياتي التي توقفت، بعد قليل

سيمرّ عليّ «سليمان» ويصطحبني في نزهة، قمت من مكاني إلى الحمّام لأستعد، لكنني لاحظت أن غرفة أبي بها إضاءة خفيفة، هذا شيء عجيبٌ؛ لأن إضاءة البيت كلها مُطفئة منذ الليلة الماضية، لم أملك إلا أن أقترب وأرى، لم أظن أنني سأتفاجأ لكنني تفاجأت عندما سمِعت صوت بكاء طفلة حديثة الولادة، ثم صوت أمّي واضحًا تتحدث بقلقٍ..

- إن ما تفعله له عواقب وخيمة يا «هاشم»، إنني لم أرَ أحدًا لجأ للسحر ونَجا.. اسمع نصيحتي وابتعد عن هؤلاء الناس.

ثم سمِعت صوتَ أبي واضحًا مثلها..

- لا أريد أن أنجب أبناء وأدعهم يعيشون ما عشته من فقرٍ واحتياج..

- لكن يا «هاشم» أنت بهذا تكفر بقُدرة الله..

قاطعها أبي بحدةٍ:

- لا أريد أن أسمع هذا الحديث عن الكُفر، فأنت تعلمين أنني برئٌ منه، كل ما أريده ألّا أعاني كي أُحقق أحلامي، لا أريد أن أبدأ حياتي في سنّ الشيخوخة..

سمِعت صوت الطفلة تبكي وأمي تهدهدها وهي تقول بحدة:

- لكن الكوابيس لا تنقطع من نومِي أبدًا يا «هاشم»! وأرى سيدة عجوز تجلس في كهف وتضحك بشكل مخيف وتقول إنها تنتظرنا!

فتحت الباب لأراهما من خلال جزء صغير فقط، ويالعجب ما

رأيته، إنهما في سنّ شبابهما، إن أمي حامل وتحمل طفلة تُشبه «سما» تمامًا، وهي صغيرة، لا بد أنها تحملني أنا في أحشائها! قاطعها أبي..

- هذا لأنك تأكلين كثيرًا قبل النوم.

نظرَت له أمي في يأسٍ وقالت:

- إذن فأنا أُشهد الله أنني لا أوافِق على هذا، وبريئة مما تفعل، كما أخبرتك أيضًا أنني لا أرتاح لأصدقائك الجدد، إنهم يبدون مثل الشياطين!

ضحِك أبي ساخرًا ولم يُعر لحديثها انتباهًا وهو يرتدي بدلته، حينها قرعت الباب لأرى هل سيختفيا؟ لكنهما نظرا في اتجاه الباب في ريبة، فقال أبي:

- بسم الله الرحمن الرحيم.. ما هذا؟

فقالت أمي..

- ألم أقل لك إن الأمر ليس بهينٍ!

نظر لها أبي في خوفٍ ثم إلى الباب، وبدأ يقترب مني ببطءٍ، ثم فتح الباب فجأة وأخذ يتلفت يمينًا ويسارًا وقال لها.ط:

- لا بد أن الصوت قادم من الخارج، البيت أمان ليس فيه ما يُخيف..

وقبل أن أتفوه تلاشى كل منهما من أمامي.. وكان هناك مَن أراح يدَه على كتفي، صرخت مُرتعبة وأنا أتلفت ورائي فوجدتها أمي

في هيئتها قبل أن تموتَ، رجعت خطوات إلى الوراء فأصبحت في غرفتهما، ابتسمت وقالت:

- أنا أنتظر العدل ولا شيء غير العدل..

أردفتْ مُتلعثمة:

- أمي.. من الذي قتلَك؟ لم تكن معك سوى «راحيل».ابتسمت أمي في حُزن ولم تجِبني ثم تركتني وذهبت إلى الخارج، تتبعتها فإذا بها تختفي في العدَم كما جاءت منه، عندها رن هاتفي فكان «سليمان» الذي قال:

- «مورين».. سأمر عليكِ بعد دقائق.

أجبته دون تفكير، وأنا أتجه نحو الحمّام..

- في انتظارك..

بعد دقائق كنت بصحبة «سليمان» في سيارته أمام العمارة، وقبل أن يقود كانت ملامحه جادة ويبدو مُنشغلًا، فأصررت أن أعلم ماذا به؛ فإذا به يقول:

- لقد أثبت الطب الشرعي قتل السيدة «عالية».

سرَت برودة في أطرافي وأنا أسأله:

- كيف؟

قال..

- الجزء الذي أخذناه من الجمجمة أثبت أن السيدة «عالية الفقي»

تعرضت لجرعات كبيرة من شم «الزرنيخ».

إنسابت دموعي وأنا أتعجب..

- زرنيخ!

نظر «سليمان» لي بجدية وقال:

- نعم..

- لماذا؟

- لأنه أعطاها السم على جرعات عبر مسام جلدها، الأرجح عبر عطر لأنها لم تتناوله كَشم مُباشرٍ، ولا بد أنها واظبت على استخدام العطر على مدار سنة كاملة على الأقل، فعلها الجانِي حتى يضمن عدم الاشتباه فيه؛ لأنه لا يظهر عند الوفاة وأعراضه تكون طبيعية مثل التقيؤ.. وآلام في البطن، وبذلك يكون موتها طبيعيًا.. فقط هبوط في الدورة الدموية مثل الملايين من الناس يوميًا.

يا إلهي.. إنها هدايا «إياد» المتكرّرة لأمي، والتي كانت عبارة عن عطرها المفضل، والذي كان يحرص أن يقدم لها زجاجة جديدة منه كلما اقتربت الأخرى من النفاد، لقد استغل حبها للعطور وكُنا نفسر ذلك بمحاولة تقرّبه إليها، لم نكن نتخيل أنه يقتلها بالبطيء! أردفتْ في غيظٍ وحزن وحسرة..

- الكلب.. الحقير لم يتركها حتى عندما ماتت، طلب من «راحيل» أن تأتي بزجاجة العطر ليستخدمه في إفاقتها.. لكنه في الحقيقة كان يتأكّد من قتلها بإعطاها جرعات مُكثفة!

وفهمت لماذا قالت إنها تنتظر العدل! شعَرت وقتها بأنني أريد أن أنتقم لها ولأبي أيضًا ولو كان الانتقام من أعوان الشيطان، بل ومن الشيطان نفسه.

***

في البداية أنكر «إياد» تُهمة قتل أمي، ربما بعدما ندم على اعترافاته أمامنا بعد أن نفَت «همسة» تهمة القتل عنها وعنفته، لكنني سلمت العطر للنيابة وقد ثُبت أن العطر بالفعل يحتوي على كمية هائلة من شم الزرنيخ، حينها لم يجد «إياد» مخرجًا غير الاعتراف، وحمدت الله أن الشرطة قد استطاعت أن تقبض على الشيخ حسن بعد أن هرب فارًا إلى الصعيد، أملًا في الاختفاء عن الأعين، لكني حين تأكدت أن عقوبة الإعدام ستكون عقابًا لـ«إياد» و«همسة» على ما ارتكباه من فظائع شعَرت براحة نفسية كبيرة، وشعرت بتحقيق العدل الذي ينتظره أبواي، هذه سنة الله في أرضه، وهذا ما يجعل الكون متوازنًا دون خللٍ.

وفي حين لم أملك إلا أن أُسامح أبي على كل ما فعل.. علمت من هو الرجل الذي كان ينتظرني في الحُلم مع «باسل»، لقد كان «باسل» مجرد سبب لأرى حقيقة «إياد»، لأستفيق وأفهم، لكن «سليمان» كان هو المُنتظر ليصبح رفيقَ الحياة، لقد طلب سليمان الزواج بي، وإنني أرى فيه معنى الرجولة الذي تمنيته ولم أرَه في إياد، وأشعُر برغبتي في قضاء عُمري معه؛ ولهذه الأسباب وافقت ورحبت «سما» كما رحبت «راحيل» به كفردٍ جديد في عائلتنا الصغيرة.

والآن لا بُد أن أستعد لقضاء الليلة معه بزُفقة «باسل» الذي عاد

لزوجته و«سما» و«إيهاب»، في طريقي إلى الحمّام رأيت حفنة من أقلام الرصاص على المكتب كنت قد ابتَعتها من أجل أوقات التوتّر التي أمُر بها بين الحين والآخر، نظرت إليها وأنا أنتوي تكسيرَها، لكنني لأول مرة تراجعت وألقيتها في صندوق القُمامة، لأشعر أنني أغلق صفحة من حياتي لا أريد أن أتذكرها.

وأخيرًا تمّ جمع شملنا من جديد في مطعم فاخرٍ اختاره «باسل» ليحتفل بنا، جلسنا جميعًا والأمل يغلبُ على الجميع، وكانت «راحيل» تنظر إلينا في غِبطةٍ وقد بدَت كعروسٍ صغيرة، قالت «سما»:

- رغم كل ما مررنا به فإنني لن أمنعَ نفسي من الفرح يا «مورين».. لقد نجانا الله.

قال «سليمان»:

- إن الحياة تمرُّ بحلوها ومرها، كل الأوقات تمرّ، فقط لا تدعيها تترك آثارها عليك.

حينها رد «باسل»:

- لكن دعونا نعترف أن ما مررنا به جميعًا كان أكبر من أن يُصدق.

أومأ الجميع بالموافقة دون تعليقٍ، شعرت برغبة الجميع في عدم الخوض فيما مررنا به دون اتفاق، ثم جاء النادل بالطعام، ولاحظت أن «إيهاب» ينظر إلى «راحيل» بريبة، لقد رأيت الخوف في عينيه أو هكذا أظن، قالت زوجة «باسل»:

- إن عندي فضولًا كبيرًا لأعرف ماذا حدث معكم، هل حقًّا رأيتِ

شيطانًا يا «مورين»؟

أجبتها بسرعة بعد نظرة لوم خاطفة لـ«باسل»:

- لا أعتقد هذا.. إننا لا نراهم.

حينها ابتسمت «راحيل» في خُبث وهمسَت في أذني..

- لكن هذا غير صحيح يا «مورين»، إنها بجوارك كل ليلة لكنك لا ترينها!

ابتعدتُ برأسي ونظرت إلى عينيها التي باتت شيطانية وأنا مذهولة بينما الجميع قد إنشغل بأحاديث جانبية أخرى، حينها رأيت سلسلة تلمع في رقبتها لم أرها من قبل، مددت يدي أتفحصها فإذا بي أرى نجمة خماسية بداخل دائرة مُشتعلة الأطراف معلقة في رقبتها!

تذكرت حُلم باسل فشهقت في خوف وأدركت أن المعركة ما زالت مستمرة فقُلت لها في تحدٍّ:

- نعم رأيتك وتحدثنا ولكنني أيضًا أعلم كيف أتغلب عليك.

ضحكت «راحيل» حتى دمعت عينيها وقالت بسخرية:

- يعجبني أنكِ تتحدثين عن المجهول بثقة! حسنًا.. سنرى من سينتصر في النهاية.

***

تمّت

أراكم في صفحات قادمة